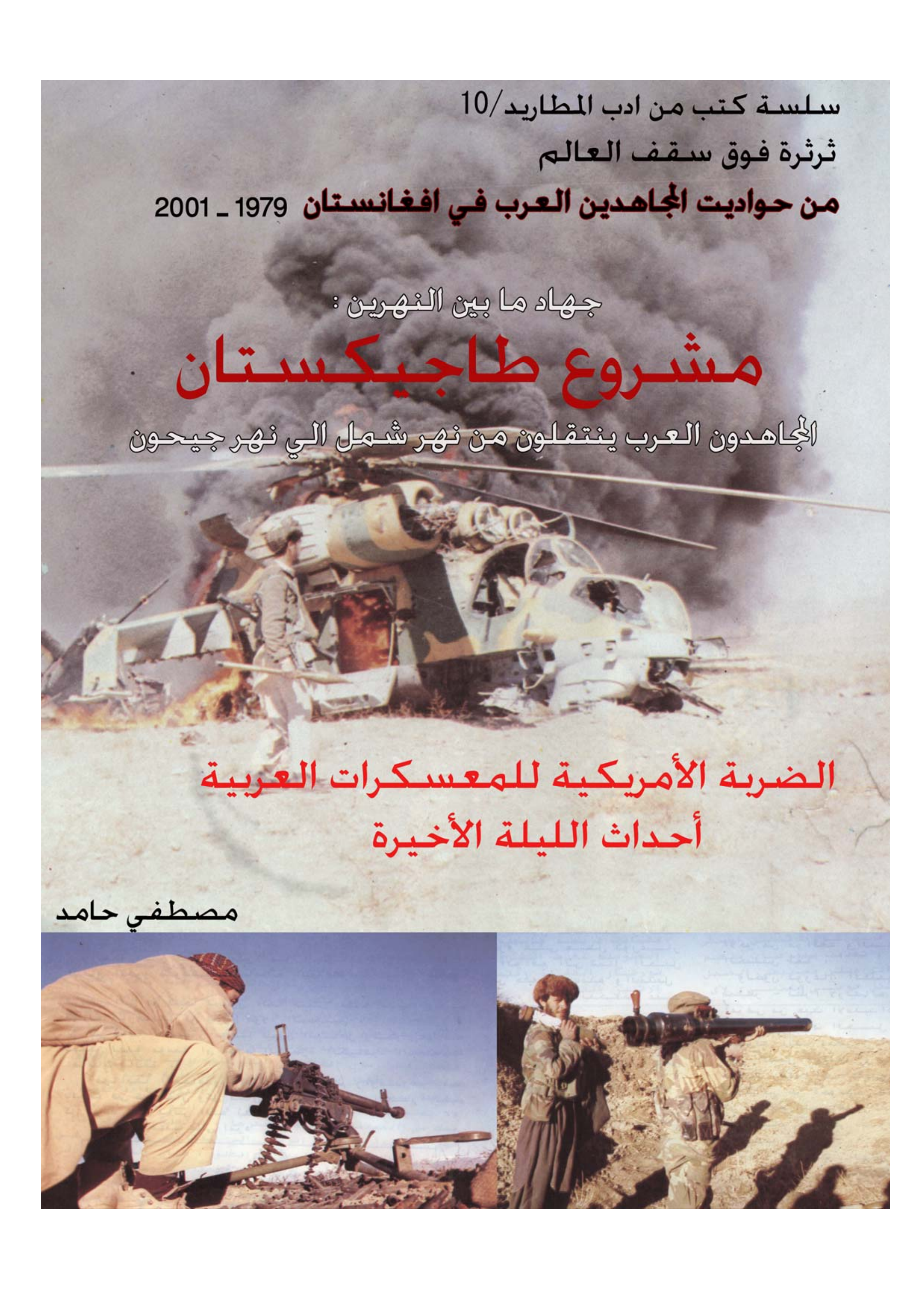

سلسة كتب من ادب المطاريد/10
ثرثرة فوق سقف العالم
من حواديت المجاهدين العرب في افغانستان 1979 ـ 2001
جهاد ما بين النهرين :
مشروع طاجيكستان
المجاهدون العرب ينتقلون من نهر شمل الي نهر جيحون
الضربة الأمريكية للمعسكرات العربية
أحداث الليلة الأخيرة
مصطفي حامد

الكاتب فى سطور

ـ مصطفى حامد .
ـ من مواليد مصر ١٩٤٥ محافظة الشرقية ـ مدينة بلبيس
ـ تخرج من جامعة الأسكندرية كلية الهندسة عام ١٩٦٩ .
ـ عمل فى الصحافة خلال فترة السبعينات ، فى عدد من الصحف الأهلية فى أبوظبى .
ـ كتب عن الجهاد الأفغانى وشارك فيه منذ عام ١٩٧٩ قبل التدخل السوفيتى .
ـ فى ١٩٨٥ أقام مع أسرته فى باكستان . وعمل هناك مديرا لمكتب صحيفة الإتحاد الظبيانية حتى عام ١٩٨٦ .
ـ أقام فى أفغانستان منذ عام ١٩٩٣ وحتى الحملة الأمريكية عام ٢٠٠١ م.
ـ تعرف عن قرب على عدد من الشخصيات العربية الهامة التى عملت فى القضية الأفغانية مثل الدكتور عبد ا عزام وتميم العدنانى وأسامة بن لادن الذى يعتبرة صديقا شخصياً له .
ـ له مجموعة من الكتب جميعها لم تنشر . وتدور حول تجربة العرب فى الجهاد الأفغانى ، الذى عاصره منذ بدايته وحتى نهايته .
ـ تعرف عن قرب على حركة طالبان ، وأميرها الملا محمد عمر ، وربطته بهم علاقة طيبة .
ـ من قندهار عمل مراسلاً لقناة الجزيرة القطرية لمدة عام ، إلى ما قبل الحرب الأمريكية على أفغانستان .

سلسلة كتب من أدب المطاريد:

١ ـ ١٥ طلقة فى سبيل ا   ٢ ـ معارك البوابة الصخرية
٣ ـ خيانة على الطريق   ٤ ـ الحماقة الكبرى أو حرب المعيز
٥ ـ المطار ٩٠
٦ ـ صليب فى سماء قندهار
٧ ـ حرب المطاريد غير التقليدية
٨ ـ فتح خوست : حفل تتويج لحرب العصابات الأفغانية
٩ ـ جرديز : تساقط المدن وسقوط النظام
١٠ ـ **مشرع طاجيكستان**: الجهاد ينتقل من نهر شمل إلى نهر جيحون
الضربة الأمريكية للمعسكرات العربية : أحداث الليلة الأخيرة

<u>**خريطة أفغانستان**</u>



<u>الفهرس</u>

مقدمة: القهر المفروض...............5
أزمة مدربين...........................8
إعداد القوة المركزية الطاجيكية...... ١٣
إنهم أولاد خوست....................١٦
نقل الأسلحة والمجاهدين من نهر شمل إلى نهر جيحون....19
ترمس يا غجر....................21
آنت خربته أنت تصلحه...........23
أمصال ضد النجاح: رضوان وأخيه جمعة......31
الفاروق معسكر الجهاد المتألق.................38
أمريكا منزعجة من الفاروق...................41
تطفيش المجاهدين الطاجيك من أفغانستان......43
من أفغانستان إلى الشيشان.......45
الباشا على نهر جيحون..........46
رحلة المهالك نحو طالقان 48
عيون جارنا جمعة ٥١
عودة إلى الوطن 54

<u>الجزء الثانى</u>

أحداث الليلة الأخيرة فى حياة معسكر الفاروق .. 56
أبو أيمن فى الدفاع الجوى 60
مفارقات 62
أحداث الليلة الأخيرة ٦٤
لا أحد يعتبر 72

أقول :

الشمس لاتزول

بل تنحنى

لمحو ليل آخر

.. فى ساعة الأفول

" الشاعر أحمد مطر "

****

مقدمة: القهر المفروض

إستفاد العالم العالم كله تقريبا من سقوط الإتحاد السوفيتى، وخاصة شعوب شرق أوروبا، التى كانت ضمن الإمبراطورية السوفيتية, ولكن أمريكا قررت حرمان جميع المسلمين من ثمار ذلك الإنتصار فى أفغانستان، والذى كان السبب المباشر فى تفكيك الجيش الأحمر، عماد الإمبراطورية وضامن بقائها.

الأشد عقوبة ومعاناة ، كانوا هم المجاهدون الذين تسببوا فى هزيمة الجيش الأحمر، أى المجاهدون الأفغان. ثم عاقبت أمريكا المنتصرين العرب على جريمة إنتصارهم فى أفغانستان، حتى لا يكرروا جريمتهم تلك، يوما ما، فى المنطقة العربية ضد إسرائيل أو أصدقائها فى المنطقة .

التحركات الشعبية المطالبة بالفكاك من الحكم الشيوعى فى المناطق الإسلامية قوبلت بحمامات الدم وأقصى درجات العنف. وحكام الحقبة السوفيتية بقوا فى نفس أماكنهم بعد تغييرات شكلية فى الأسماء وأحزاب شكلية تكونت وبرلمانات صورية تنتخب .

وإكتفى منهم الغرب بذلك التهريج وتظاهر بالبلاهة، فإعترف بهم وأيد قمعهم ، بل وأمدهم بكل عون ممكن، سياسى وإقتصادى، وأحيانا تسليحى.

حدث ذلك فى طاجيكستان التى التى شهدت تحركات شعبية تطالب بالحرية والإسلام، فواجهتها السلطة الحاكمة بنيران الجيش المدعوم بفرقتين روسيتين بقيتا فى البلاد للحفاظ على المكتسبات الروسية فيها وفى دول الجوار، وحتى لاتخلوا الجمهوريات

الإسلامية تماما من أى تواجد عسكرى روسى. وكانت طاجيكستان هى الحلقة الأضعف فى تلك المنطقة.

كان نتيجة تلك الصدامات سقوط آلاف القتلى فى الشوارعلى طول البلاد وعرضها، وفرت آلاف العائلات عبرنهر جيحون "آمو داريا" إلى أفغانستان التى تربطهم معها حدود طويلة "١٤٠٠ كم" كلها تمر فى النهر الذى يشكل حاجزا طبيعيا بين البلادين .

ولكن على جانبى النهر تعيش نفس العرقية الطاجيكية التى تتحدث لغة واحدة هى الفارسية. لذا كان الطاجيك فى طاجيكستان هم الأكثر تأثرا بإنتصار الأفغان على الجيش السوفيتى، يرجع ذلك إلى حماسهم القومى الشديد للقائد الأفغانى الطاجيكى القومية، أحمد شاه مسعود. وكانت تصوراتهم عن دوره مضخمة كثيرا عن الواقع، ولكنها أججت روحهم الدينية، حتى أنهم قالوا لنا بعد ذلك أنهم كانوا فى إنتظار أن يعبر مسعود نهر آموداريا لتحريرهم. وكلما مر يوم بدون أن يجئ كانوا يقولون: سيصل إلينا غدا بكل تأكيد.{{ كانت فجيعة الطاجيك هائلة فى بطلهم مسعود إذ سرعان ماإكتشفوا أنة العامل الأساس فى إفشال جهادهم وبيعهم لنظام بلادهم ضمن صفقة إقليمية ودولية، فاز فيها الجميع فيما عدا المجاهدين الطاجيك، رغم أن قيادات النهضة تلقت جوائز شخصية }}.

*** ***

فى خريف ١٩٩٢ وصل إلى بيشاور "حق نظر" أحد أعضاء مجلس شورى حزب النهضة الطاجيكية، وهو حزب إخوانى دولى. لذا فإن وفدهم إلى باكستان كان يستهدف الجماعة الإسلامية الباكستانية. فى الحقيقة أن ما كان يبحث عنه "حق نظر" وحزب النهضة كان عند المجاهدين العرب فى أفغانستان، ولم يكن عند الدوليين فى باكستان أو خارجها. وحتى الدوليون الأفغان: "سياف، ربانى،حكمتيار" كان لهم مواقف محبطة جدا للنهضة الطاجيكية، أدت فى النهاية إلى إحباط المشروع الجهادى الطاجيكى، والدخول فى صفقة تقاسم غنائم مع نظام طاجيكستان الذى قتل ودمر وشرد المسلمين هناك.

كان مايريده "حق نظر" وحزب النهضة هو السلاح!!. ببساطة لأن هناك طائرات تقصف وتقتل ودبابات تعصف بالقرى، وميليشيات تسفك الدماء وتنتهك الحرمات وتنهب الأموال. لم يكن لدي النهضة فكرة عن نوع السلاح المطلوب للمقاومة.

فى لقاءه الأول معنا طلب منا "حق نظر" صواريخ ستنجر!! . لقد فهموا من الإعلام الدولى أن ستينجر كان الأسطورة التى حققت النصر للأفغان ، فلابد إذن من هذه الصواريخ حتى ينتصروا.

شرحنا له طويلا قصة ذلك الصاروخ. وتحدثنا معه عن الإحتياجات الفعلية لهم. مع وعد بأننا سنسعى معهم لتوفيرها وإيصالها لهم. والأهم من كل ذلك هو التدريب عليها بشكل جيد، والقتال بقوة عالية التدريب والإنضباط. وكلمنه عن ضرورة دراسة وإستيعاب ماحدث فى أفغانستان والإستفادة من نقاط القوة فيه وتلافى نقاط الضعف والسلبيات. وحذرناهم من تعدد التنظيمات والقيادات ومن تدخل الدول الخارجية فى شئونهم...إلخ . إستغرق الحديث عدة جلسات مطولة إنتهت بإتفاقات محددة، كان عليه أن ينقلها إلى حزب النهضة، وكان علينا أن نجمع الإمكانات المطلوبة لعملية تدريب عالية المستوى، ولتوفير أكبر قدر من السلاح والذخائر التى تبقت لدى العرب، وفى مقدمتهم " القاعدة".

كانت القاعدة وقتها فى حالة تصفية لوجودها فى باكستان وأفغانستان، والكثير من كوادرها قد إنتقل بالفعل إلى السودان.

ناقشت مطولا كل من أو عبيدة وأبو حفص حول ما أسميته "مشروع طاجيكستان" وطلبت منهم عدم بيع ماتبقى لديهم من أسلحة وذخائر وتوجيهها إلى ذلك المشروع، فأسعار تلك الأشياء قد إنخفضت بشكل مبالغ فيه حتى لم تعد تساوى كلفة النقل. وذلك متعلق بالموقف السياسى فى أفغانستان، وطرح كميات هائلة من تلك المواد فى أسواق القبائل بواسطة قوافل الغلول والقادة الفاسدون فى أفغانستان.

كانوا فى القاعدة بصدد تصفية جميع معسكراتهم إلا معسكر واحد يبقى إلى أن ينتهى كل شئ، ثم يغلق هو الآخر، وهو معسكر "جهاد وال".

فى اللحظات الأخيرة سافرت مع "سيف العدل" ، وأوقفنا تصفية معسكر الفاروق, وكان الشباب قد جمعوا آنية الطبخ والفرش ووضعوها فى السيارات، وكانوا على وشك الإنطلاق بها لحظة وصولنا، فأوقف سيف العدل العملية وأمرهم بإعادة ما نقلوه إلى معسكر الفاروق القريب.

شباب المعسكر فرحوا كثيرا بفكرة "مشروع طاجيكستان" لتدريب وتسليح المجاهدين الطاجيك وصاحوا مكبرين، وإندفعوا بحماس كبير لإعادة تجهيز المعسكر لجولة جديدة من الجهاد فيما وراء النهر.

***

أزمة مدربين

كانت المشكلة الأعوص هى العثور على المدربين لأن الكل يرحل أو يحزم أمتعيه للرحيل.وكانت التنظيمات تتشبث بمدربيها كملكية خاصة ومكسب أساسى من تجربة أفغانستان. بدأت التنظيمات العربية تنظر بإرتياب إلى "مشروع طاجيكستان"، وظن العديد من الأذكياء أنها محاولة لجذب إهتمامهم إلى خارج المنطقة العربية وجهاد "الطواغيت" فيها.

وحتى "جماعة الخلافة" إنزعجت من المشروع، ودعونى فى أحد الليالى لمناقشته.

جاءنى بالدعوة شباب أعرفهم من خوست،وكانوا يوما ضمن جماعة أبوالحارث. فذهبت معهم إلى بيت كبير إستأجرة الخليفة لأتباعه.

جلس معى نائبه وعلى جانبيه حوالى عشرة من مساعديه وحولنا عدد كبير من الأتباع العاديين حتى إكتظت الغرفة.

بسرعة إكتشفت أننى أخضع لما يشبه الإستجواب العلنى.

سالنى نائب الخليفة: لماذا تعرقل جهاد الطواغيت فى بلاد العرب وتفتح مشروعا لتشتيت الشباب.

قلت لهم أن هناك من لايريد، أو لايستطيع، العودة إلى بلاده لسبب أو آخر. هؤلاء يمكنهم الإلتحاق بمشروع نافع بدلا من الضياع فى شوارع باكستان، أو فى قتال مجنون فى كابول.

الغريب أن الشباب إقتنعوا بذلك المنطق وظهر على معظمهم الترحيب والإرتياح. ولولا أن القتل عندهم هو جزاء من يغادر الجماعة وينقض بيعة الخليفة، لإلتحق بعضهم بالمشروع.

شباب جماعة الجهاد المصرية إستدعونى لجلسة مشابهة، لكنها أقل توترا. فقد ربطتنى صداقة بالكثير منهم، وعمل مشترك فى الجبهات فى ظروف مختلفة.

لم يكن مقنعا بالنسبة لهم أن يكونوا عناصر فى جماعة جهاد مصرية ثم يجاهدون فى طاجيكستان. لم يكن ذلك مقبولا ، لذا لم يستجب أيا منهم للمشروع. لكن بضغط من الظروف شارك العديد منهم فى الجهاد فى مناطق أخرى، خاصة فى الشيشان وفى مشروعنا أيضا كان لهم مشاركة جوهرية عبر كادر واحد فقط ولكنه يعادل كتبة على الأقل. كان ذلك هو الملاكم الشرقاوى "أبو دجانة" الذى ساهم فى تدريب الكوادر الطاجيكية ثم عبر معهم نهر جيحون وصارت له هناك شهرة كبيرة و "مواقف خالدة" سيمر أحدها معنا لاحقا.

لم أتمكن من عرض المشروع على الجماعة الإسلامية المصرية لإفتقارى إلى رابطة قوية معهم ، لعدم تواجدهم فى مناطقنا الأفغانية إلا نادرا. وقد شاركت مجموعة منهم معنا فى مشروع المطار الجديد أثناء فتح خوست، وكانوا من أفضل المجموعات التى عملت معها فى افغانستان وكانوا من أعمدة نجاح عمليتنا تلك.

الجماعة الإسلامية هى الأخرى شاركت فى الجهاد مناطق أخرى مثل البوسنة.

لكن فى ذلك الوقت كان جميع العرب مصدومون مما يحدث فى كابول.والنتائج السياسية الهزيلة بعد ذلك الجهاد الطويل. وكان معظمهم يرغب فى المغادرة فى أسرع وقت، لولا العقبات التى بدأت تتزايد. فوجدوا أنفسهم مستهدفين، وبشكل متزايد يعاملون على أنهم مجرمون يشكلون خطرا داهما على بلادهم والعالم. فأصيبوا بالإرتباك والتخبط وفقدوا القدرة على التفكير المنطقى.

لقد كانت الأحداث، ومنذ البداية أكبر من مستوى كل القيادات العربية الموجودة وأكبر من كل الإمكانات المتاحة للمواجهة، وأكبر من كل التوقعات.

أخذ العرب يجرون فى كل إتجاه مثل الفئران المذعورة فأصبح إصطيادهم سهلا على آلاف الكلاب المدربة والمبثوثة فى موانئ ومطارات العالم. وكان الحل الأمثل لهم هو أن يحملوا أسلحتهم ويصعدون فوق جبال أفغانستان لتنظيم صفوفهم، وخوض المعركة وفق شروطهم وليس وفق شروط العدو. لكنهم لم يتصوروا أنها معركة وتصوروها أزمة عابرة .(تماما كما حدث للعرب أثناء أحداث ١١ سبتمبر).

بعض الأصدقاء نصحونا بالإستعانة بمدربين فى الأكاديمية العسكرية التابعة لسياف والموجودة فى منطقة بابى القريبة من بيشاور, و قالوا إن هناك مدربين جيدين يعانون الآن من البطالة.

إجتمعنا بعدد من هؤلاء المدربين فى معسكر جهادوال وخاضوا معنا نقاشا تفصيليا حول الأجور وساعات العمل والإجازات. وفى الأخير تم الإتفاق مع أربعة منهم عملوا معنا لفترة تميزوا فيها بالجدية والإجتهاد.ولكن بعد فترة قصيرة إنخفضت كثيرا قدرتنا المالية المنخفضة أساسا، إضافة إلى إنخفاض حاد فى عدد المتدربين، سنذكر أسبابة لاحقا، فتوقف عملهم معنا ولكننى كنت سعيدا كون الأفغان كانوا هم أول من درب المجاهدين الطاجيك، لقد إعتبرت ذلك زكاة إنتصارهم. إضافة إلى أنه عمل منطقى فى الحروب، أى ملاحقة الجيش الروسى المنهزم لإستخلاص الأراضى التى إغتصبها، وتحرير الشعوب الإسلامية التى إستعبدها.

عند بداية عملنا فى معسكر الفاروق لتدريب الطاجيك، كان عدد كوادر القاعدة المتبقين فى معسكر جهادوال القريب منا، حوالى عشرة أشخاص. وبعد قليل إنخفض عددهم إلى خمسة فقط، ولم يكن هناك غيرهم فى خوست. وكان أميرهم "أبوالعطاء" ـ أبو زيد التونسى ـ قد ربطنى به صداقة قوية منذ عملنا سويا فى مشروع المطار القديم "المطار٩٠". وكان مقتنعا بضرورة مساهمة القاعدة فى تدريب الطاجيك. لكنة لم يتحرك عمليا، منتظرا أوامر قيادته فى السودان. طال إنتظاره ولم يصله رد، ولكن تحت ضغط إلحاحى الشديد عليه ومحاصرتى إياه بكافة الحجج والبراهين مستغلا رابطة الصداقة القوية بيننا، رأى أن يساهم بشخصه فى التدريب تاركا لباقى إخوانه حرية الإختيار، وسرعان ما إنضموا جميعا إلى العملية وشكلوا تحت إمرته طاقما رائعا للتدريب. "إستشهدوا جميعا بعد ذلك فى الأحداث التى مرت بالعرب فى أفغانستان، وإستشهد أبو عطاء فى معارك كابول" .

ثم إنضم إلينا بعد قليل "أبودجانة" من كوادر جماعة الجهاد المصرية بعد أن ضاقت عليه السبل فى بيشاور وتأزم وضعه الأمنى. أصبح ذلك الشاب المرح من نجوم التدريب فى معسكرنا ثم من نجوم العمل العسكرى فى طاجيكستان نفسها.

تولى أبودجانه "الملاكم" تدريبات اللياقة البدنية والدوريات طويلة المدى النهارية والليلية، ساعده فى ذلك العمل الشاق مواطنه المصرى "والشرقاوى أيضا" أبو تميم وهوشاب رياضى ولاعب كرة قدم، وكان أيضا من العباد الناسكين.

"إستشهد أبو تميم فى معارك كابول بإنفجار قذيفة هاون أمريكية مفخخة داخل مدفعه".

تميز تميم إلى جانب لياقته البدنية العالية جدا، بطاقة روحية كبيرة كانت تفيض على الشباب الطاجيك فيتحملون مصاعب التدريب التى كانت قاسية ومكثفة.

من الآن فصاعدا صار تدريب الشباب الطاجيك هو مسئولية مدربى القاعدة. كان كل منهم يعطى درسه المحدد فى معسكرنا "الفاروق" ثم يرجع بسرعة إلى مقر العرب فى

معسكر جهادوال. كان عددهم هناك لايكفى للحراسة، فكنا نساعدهم فى ذلك قدر الإمكان بواسطة المتدربين الطاجيك.

تلك المعسكرات التى كانت تزدحم بمئات المتدربين أصبحت تفتقر الآن إلى مجرد الحراسات. كما تم إغلاق إثنين من المعسكرات الصغيرة القريبة من جهادوال لنفس السبب، أى قلة المدربين وتوقف النشاط التدريبى.

وكانت تحرشات اللصوص قد زادت كثيرا، وتنمرت عناصر قبلية بالمعسكرات راغبين فى "غنيمتها". وقد خسرنا العديد من ثروة معسكرنا الحيوانية وإستطاع لصوص هواة من إلتقاط العديد من أغنام المعسكر.

وفى أحد المرات إستطاع لص محترف من سرقة قطيعنا كله "حوالى١٨ معزة".

حددنا هوية السارق وبعد مفاوضات مضنية إستعدنا القطيع بعد "دفع فدية" للخاطفين. وافقت على ذلك مرغما تفاديا لشن "حرب معيز" تأكل الأخضر واليابس، وقد تأكل مشروع طاجيكستان نفسة .

وبشكل ما فإن مشروع طاجيكستان هو الذى حافظ على معسكرات القاعدة فى أفغانستان، فوجدت القاعدة مرتكزا لها فى أفغانستان عندما عادت إلى أفغانستان مرة أخرى عام ١٩٩٦. فى وقتها إقترحت على أسامة بن لادن أن يجعل من معسكرات خوست مقرا له ولجماعته بعد نقل المعسكرات بعيدا من الحدود الباكستانية التى أضحت تشكل خطرا لاشك فيه, لكنه رفض الإقتراح فقد كان قد وقع فى غرام جبال تورابورا فى جلال آباد من النظرة الأولى.

*****

إعداد القوة المركزية الطاجيكية

أردنا أن يبدأ إخواننا الطاجيك من حيث إنتهى المجاهدون الأفغان, وبالذات من حيث إنتهى حقانى، أى بتشكيل قوة مركزية عالية التدريب والتجهيز. إنه الأمل الذى ظل يراودنا فى أفغانستان منذ عام ١٩٨٦ ، وإستطاع حقانى تحقيق جزء من ذلك الحلم فحقق به الكثير جدا فى معاك خوست وجرديز.

كون القوة مركزية، يعنى أنها تابعة مباشرة للقيادة العليا للجهاد، تتحرك بأمرها فى مختلف مسارح العمليات. وهذا يميزها عن القوات المحلية المكونة من سكان المناطق المجاهدة، لذا فالقوة المركزية، بحكم تركيبتها البشرية وإعدادها العسكرى والثقافى والسياسى، لها دور فى تخطى الحواجز العرقية واللغوية والمذهبية.فهى إذن عنصر توحيد وترابط إجتماعى.

ركزنا فى أحاديثنا مع قيادات النهضة على موضوع القوة المركزية، بل جعلناها محور مجهودنا معهم، أى أن تدريب تلك القوة وتجهيزها، سيكون من واجبنا.

كما أننا سوف نرافق تلك القوة إلى داخل طاجيكستان لتوجيه عملهم فى بداية الأمر، ثم نتركهم بعد إستقرار طريقة العمل والهيكل القيادى. بعدها نعود إلى معسرنا "الفاروق" لتدريب المزيد من أفراد تلك القوة. وأن نقيم معسكرا للتدريب قرب مدينة طالقان شمال أفغانستان، ونبقى معسكرا آخر فى خوست.

طالبنا النهضة إمدادنا بعناصر قيادية لتأهيلهم فى دورات خاصة لقيادة القوة الجديدة.

كان موعدنا أن تكون القوة جاهزة وأن يشارك فى القتال الفعلى فى صيف١٩٩٤.

كان تسليح القوة متاحا من بقايا أسلحة القاعدة فى أفغانستان. وكان أسامة بن لادن قد وافق على إعطائهم ذلك المخزون، كما وافق بعد ذلك أن يشارك مدربو معسكرجهادوال فى تدريب الشباب الطاجيك، وكانوا قد بدأوا فى ذلك حتى قبل أن تصلهم الموافقة من السودان.

"النهضة" حتى اللحظة الأخيرة لم تزودنا بقائد للقوة الجديدة، فقررنا أن نختار نحن من واقع التجربة الميدانية، قائدا للقوة ومعاونا له.

كان من المفروض أن أصطحب تلك القوة إلى طاجيكستان ويساعدنى "عبد الهادى" حتى نضع هؤلاء الشباب فى حالة التشغيل المطلوبة.

كان "عبدالهادى" من الفرائد العربية فى أفغانستان،هادئ الطباع ذو خلق ومعنويات إسلامية عالية ولياقة بدنية ممتازة. سبق له الخدمة فى الجيش العراقى ويجيد التحدث بالفارسية، ذوشخصية قيادية مقنعة. كان فى الثلاثينات من العمر فكان بالفعل أخا أكبر لمتدربينا الذين تعلقوا به كثيرا، حتى أننى نبهتة مرارا من خطورة العلاقة الأبوية المفرطة التى قد تتحول إلى عقبة فى عمل مثل هذا ملئ بأشد الأخطار.

جاء عبد الهادى إلى أفغانستان فى الأشهر الأخيرة من الجهاد، وشارك فى كتيبة اليرموك التى أسسها أبو روضة السورى لدعم حكمتيار فى حربه حول كابول.

عبد الهادى ترك الكتيبة بعد إستشهاد أبو روضة. تعرفت عليه فى قلعة "تخته بك" الكبرى فى خوست وربطنا بسرعة صداقة قوية، ورافقنى فى مشروع طاجيكستان الذى كان يفتقر بشدة إلى الكوادر المؤهلة من أمثاله. كان عبد الهادى فى الحقيقه هو دينامو المشروع. فتولى إدارة المعسكر مع التدريب أحيانا. وإكتفيت أنا بدور عجائز الفرح وترتيب الأمور مع عبد الهادى مباشرة بالنسبة لإدارة المعسكر، ومع أبو العطاء بالنسبة لبرامج التدريب. وأعطيت القليل من المحاضرات مستعينا به كمترجم.

زميلنا أبو كنعان كان له دوره الحيوى، إذ تكفل بتوفير الدعم المالى للمشروع. وبصفته نائبا سابقا للأمير فى جماعة أبو الحارث، التى تركها بعد تحولها إلى القتال فى كابول مع حكمتيار. ولكنه عبر علاقات قديمة، تمكن من تحويل جزء من التبرعات إلى مشروع طاجيكستان. المتبرعون فى أغلبهم كانوا مجاهدون سابقون مع أبو الحارث، ولم يوافقهم التحول الجديد للقتال فى كابول.

أحد أعمدة المشروع كان شخصية أفغانية فريدة، إنه المعلم عبدا . وهو مدرس سابق عمل فى الجبهات وفى التدريب مع حزب سياف ثم تركه بعد ذلك. خبير أسلحة ومقاتل متمرس من الطراز الأول. عمل فى المشروع كمدرب وكمدير للعلاقات العامة مع الوسط القبلى من حولنا، فأكتشفنا فيه مواهبه الدبلوماسية الممتازة.

فقد عبر بنا من أزمات متتالية مع لصوص المنطقة من البدو والقبائل، الذين شعروا بضعفنا وقلة عددنا فتحفزوا لأكلنا عملا بقانون الغاب القائل: "الموت للأضعف".

وعندما ظهرت حركة طالبان فى صيف١٩٩٤ قابلهم عرب حكمتيار بأشد قتال واجهته الحركة منذ ظهورها. لقد قاتل العرب حتى الرمق الأخير، وقتلوا الكثير من الطلبة الذين أغضبهم ذلك كثيرا، لأن القادة الأفغان كانوا متساهلين كثيرا مع الطلبة لأسباب عديدة منها إحترامهم للدين نفسه وكانوا يقولون: كيف نطلق النار على حفظة القرآن الكريم؟؟. فكانوا يستسلمون لهم ، بل ويقاتلون إلى جانبهم. لكن العرب قاتلوهم بعنف نتيجة التعبئة النفسية التى شحنهم بها حكمتيار.

ظل الطلبة ناقمون على العرب لفترة طويلة ، وتمكنت مجموعة "مشروع طاجيكستان" من تلطيف الأجواء بعد مجهود متصل وبواسطات من أصدقاء موثوقون من قادة الوزن الثقيل من أمثال حقانى ونظام الدين وكثير من أمثالهم .

رفض الطلبة قبول أى عون تدريبى من جانبنا لكوادرهم. فطلبنا من معلم عبدا أن يعمل معهم فى مجال صيانة الأسلحة. فذهب إليهم فى محافظة لوجر التى ينتمى إليها وقدم لهم الكثير من المساعدات القيمة. فقد كان أكثرهم شباب صغار السن متحمسون وعديمى الخبرة حتى بأولويات العمل العسكرى وبالكاد يطلقون نيران بنادقهم، ولايستطيعون تنظيفها بعد الإستعمال.

عمل "معلم عبدا " كان أول مساعدة عربية غير مباشرة لحركة طالبان، الذين دخلت علاقاتهم بالعرب منعطفا حاسما بعودة بن لادن إلى أفغانستان عام ١٩٩٦.

****

إنهم أولاد خوست !!

أول مشاكلنا مع النهضة كان عجز التنظيم عن توفير العدد المطلوب من المتدربين. كنا تأمل أن تبدأ القوة المركزية بتعداد ٥٠٠ مجاهد. ونتيجة عدم توفر عناصر التدريب قررنا الإكتفاء بمئتين فقط. ومع توالى المشاكل لم نتمكن سوى من تدريب ثمانين عنصرا فقط. وذهبنا معهم إلى مدينة طالقان فى محافظة تاخار شمال أفغانستان تمهيدا لعبور نهر جيحون من طرف محافظة بادخشان الأفغانية وصولا إلى محافظة بادخشان الطاجيكية. وسنأتى على ذكر ذلك فيما بعد.

الدفعة الأولى من الشباب الذين أرسلهم حزب النهضة إلى معسكرنا "الفاروق"كانت فى حدود ١٥٠ شابا. والمدربون وقتها كانوا من أكاديمية بابى العسكرية التابعة لسياف. الشباب كانوا قادمين للتو من تحت حكم نظام شيوعى، فكانت معارفهم الإسلامية تكاد أن تكون صفرا. ولكن أبناء القرى منهم كانوا أفضل حالا.

كثيرون منهم ينبغى تعليمهم الصلاة وشيئ من القرآن لأول مرة . وكنت مصرا على إبعاد التأثير السلفى عنهم، كون شعبهم يتبع المذهب الحنفى وأكثرهم متصوفون تاريخيا، لذا إتفقنا مع بعض العلماء الأفغان من جيراننا فى قاعدة جاور من جماعة حقانى لتعليمهم الإسلام وأحكام الشريعة طبقا للمذهب الحنفى.

أفهمت إخواننا المدربين، من جماعة القاعدة، عن أن مبدأنا فى المعسكر هو تعليم المتدربين مبادئ الفقة السائد فى بلادهم حتى لايجدوا أنفسهم فى عزلة وصدام مع مجتمعاتهم، فيجد الأعداء فرصة لضربهم من هذة الثغرة. إقتنع إخواننا بصعوبة، ولكن ما فعلناه كان موضع ترحيب حزب النهضة.

المتدربون كانوا تعبيرا عن مجتمع تجتاحة الصراعات "المنطقوية" بشكل لم أشهد له مثيلا، وأشد مما هو موجود فى أفغانستان بين العرقيات، بحيث تبدو أفغانستان من هذه الناحية أكثر تجانسا.

ظهر لنا فيما بعد أن شباب أوزبكستان يعانون من نفس المرض الناتج من جرثومة زرعها بينهم الإحتلال الروسى لعشرات السنين، طبقا للسياسة الإستعمارية الشهيرة "فرق تسد".

لم يخضع الشباب لأى نوع من الفحص والإنتقاء من جانب حزب النهضة، وذلك على عكس إتفاقنا معهم بأن يكون الشباب من نوعية ذات مواصفات خاصة. ظهر لنا أن العديد منهم إلتحق بالقافلة المتحركة إلى خوست فى اللحظات الأخيرة لمجرد الفضول وحب الإستطلاع، ولم يكن يتوقع أو يرغب فى أى عملية تدريب عسكرى.

ما أن بدأ التدريب حتى بدأ الشباب يتساقطون من الإعياء والتمارض. ثم بدأت عمليات فرار وعصيان للأوامر. وهى أشياء لم نشاهده قبلا نحن ولا الأفغان. فقد كان المتدرب من العرب أو الأفغان، شخص تحركه عقيدة دينية قوية، تجعله يتحمل كافة المشاق. ولكننا نواجه الآن شبابا مختلفا أصابنا بما يشبه الصدمة وخيبة الأمل.

بدأت عمليات الهروب من المعسكر تتوالى. نجحت المجموعة الأولى فتجاهلناها. ذهبوا عبر الجبال إلى مدينة خوست ومنها إلى كابول حيث المقر الرئيسى لحزب النهضة فى أفغانستان. وهناك راحوا يصرخون ويولولون.

ثم هربت مجموعة ثانية وثالثة. شككنا أن الأمر ليس عشوائيا وأن هناك ترتيب ما. فقررنا التصدى بحزم لتلك "الظاهرة". بالتحقيق الذى تولاه المدربون الأفغان، إتضح وجود ثلاث مجموعات منفصلة، أرسلتهم المخابرات الروسية إلينا كمتدربين.

إعترف الشباب بدون ضغوط شديدة أو ضرب. وتم تحويلهم إلى حزب النهضة تحت الحراسة إلى مقر الحزب فى كابول. ولم نسمع بعد ذلك عن أى عقاب وقع بهم. ولكن بدأت فكرتنا عن أحوال حزب النهضة وشعب طاجيكستان تميل أكثر نحو الواقعية بعد أن كانت تحلق فى أجواء الرومانسية. كان ذلك مفيدا إذ جعلنا أكثر حذرا ولكنه لم يصبنا بالإحباط.

جاءنى المدربون الأفغان يشتكون من عدم جدية المتدربين، وأن نتائج ذلك المجهود لن تكون مرضية. فعرضت عليهم حلا وافق عليه الجميع بحماس، وهو أن يجمعوا كل المتدربين فى ساحة المعسكر، وكل مدرب يخرج من لا يراه صالحا للتدريب، ولايهم العدد الذى يتبقى بعد ذلك، حتى لو تم إستبعاد كل المتدربين.

بدأ المدربون بحماس فى إبعاد غير الصالحين للتدريب، فلم يتبقى من المئة والخمسين غير خمسة عشر متدربا فقط.

وعلى الفور، وبالشاحنات أرسلنا المبعدين بالشاحنات إلى مدينة خوست،وأستأجرنا لهم باصات نقلتهم إلى كابول. وعدنا إلى معسكر هادئ جدا وفعال جدا، وتخرج من هؤلاء أفضل العناصر التى جاءت من طاجيكستان إلى خوست.

منذ ذلك الوقت إشتهر "معسكر خوست" بين الطاجيك بالصرامة. فلا يجرؤ على الإقتراب منه سوى الأفذاذ منهم. وعندما عاد خريجوا المعسكر إلى موطن هجرتهم فى شمال أفغانستان كانوا موضع إعجاب وإحترام الجميع. لقد ظهر عليهم التغيير بوضوح، ليس فقط جسمانيا، بل الأهم كانت السلوكيات المستقيمة والجدية والتدين.

علمنا فيما بعد أن المهاجرين كانوا يتسابقون لتزويج بناتهم "لأولاد معسكر خوست" كما كانوا يطلقون عليهم هناك. وكانوا يتعرفون عليهم فى الطرقات من مجرد هيأتهم وطريقة مشيهم ويشيرون إليهم قائلين بفخر "إنهم أولاد خوست".

نحن أنفسنا فوجئنا بمقدار التغيير الحادث فى هؤلاء الشباب، بالقطع لم يعودوا هم نفس الشباب الذين رمتهم مقاديرهم علينا. مستوى ذكائهم كان ممتازا وقدراتهم الدنية تحسنت بشكل سريع، ومع نهاية الدورة كانت حالتهم الدينية والمعنوية فى القمة, لقد شعروا بحب الجميع لهم وتفانيهم فى خدمتهم وحرصهم عليهم. أثر فيهم ذلك وجعل إستجابتهم للتدريب والتعلم فى القمة.

معظمهم فضل البقاء فى المعسكر للمساعدة فى تدريب الدفعات القادمة من زملائهم، وفى تسيير إداريات المعسكر. كان ذلك عملا عظيم التأثير، رفع من قدرات المعسكر،

وخلق حالة رائعة من الترابط بين المتدربين بعضهم بعضا ، وبين هؤلاء وبين "معسكر الفاروق" الذى إعتبروه بحق " معسكر طاجيكستان".

لقد تحول "معسكر الفاروق" إلى رمز وحالة معنوية إسلامية، وترابط عاطفى عميق ربط العرب والأفغان والطاجيك بشكل لم يكن أحد يتوقعه أويضعه فى الحسبان رغم أهميته الكبرى.

وعندما بدأت قيادة النهضة إجراء مفاوضات مع حكومة طاجيكسيان من أجل "المصالحة" والعودة إلى الديار، غضب مدربونا العرب. لأن الجميع يعرف تأثير ذلك على النهضة وعلى شعب طاجيكستان، والحياة الإسلامية فى البلاد.

بعض مدربونا العرب طالب بوقف التدريب وطرد المتدربين، وقطع كل علاقة مع النهضة. وتمادوا إلى درجة وصف زعيم النهضة عبد ا نورى بأنه ياسر عرفات آخر. وقفت بشدة فى مواجهة ذلك التيار، وتمكنت بصعوبة من إعادة التدريب. عاد معظمهم المدربين إلى العمل وتوقف آخرون. كانت حجتى فى مواجهتهم أن رهاننا فى طاجيكستان وجميع بلاد ما وراء النهر هو على هذه النوعية من الشباب الذين يتدربون فى الفاروق. هذا الجيل الجديد هو الذى يمكن أن يحدث تغييرا إسلاميا فى طاجيكستان، وليس نحن كعرب ولا حزب النهضة الذى يمثل جيلا كان له ظروفه الخاصة التى عاشها تحت إحتلال روسى لايرحم، أثر على عزائمهم ورؤاهم.

***

نقل الأسلحة والمجاهدين

من نهر شمل إلى نهر جيحون

نقل الأسلحة والذخائر من خوست إلى طاجيكستان، كانت عملية مليئة بالإثارة والعواطف الجياشة والحماس. والذى لم نتوقعة أيضا أن تكون تلك العملية موضع إجماع وترحيب وتنافس بين المتصارعين فى أفغانستان!!.

لقد كان الجميع مندهشا من ذلك الذى يحدث. أو ما وصفه حقانى بالمستحيل الأكبر فى أفغانستان، وكان يقصد بمرور الأسلحة والذخائر التى نرسلها إلى طاجيكستان عبر خطوط المتقاتلين الأفغان، فإذا بهذا المستحيل يحدث أمام ناظريه وهو يضرب كفا بكف.

لقد صارت قضية الجهاد فى طاجيكستان قاسما مشتركا أجمع عليه المتصارعون، ولم يجرؤ أحد على معارضتة، علنا على الأقل، والصغار الذين تحركوا للسطو على تلك المواد، منعهم الكبار على الفور.

وعملية النقل كانت تبدأ من منطقة أحد أطراف الصراع إلى منطقة نفوذ طرف آخر معادى له، ثم تستمر فى الحركة إلى منطقة طرف ثالث معاد لكليهما.. وهكذا، والجميع يقدم المساعدة ولا يعترض على المرور.

كان ذلك عجيب حقا، ومدهشا إلى درجة أننى مازلت أعتقد أن قضية طاجيكستان الجهادية لو أحسن معالجتها، لعالجت فى نفس الوقت مشاكل القتال الداخلى فى أفغانستان. فحماس البشتون للدعم والساندة المباشرة، لم يقل بحال إن لم يكن أكثر بمراحل، من حماس الطاجيك الأفغان. لقد لمسنا عمليا أن قوة الإسلام الجامعة بين تلك العناصر أقوى بكثير من كل التناقضات المفتعلة التى تثيرها قوى معادية للمسلمين. فى الوقت الذى يتقاتل فيه قادة فاسدون وبتحريض من أعداء الإسلام، على أساس عرقى حول كابول، رأينا العرقيات الأفغانية على أرض طاجيكستان تقاتل جنبا إلى جنب جهادا فى سبييل ا . كان من بين هؤلاء شباب صاروا قياديين فى حركة طالبان التى إتهموها زورا أنها تمثل عصبية بشتونية.

بعد موافقة أسامة بن لادن على إعطاء المجاهدين الطاجيك، ماتبقى لديه من أسلحة وذخائر، بدأنا فى تجميع تلك المواد من مواضع مختلفة، فى مكان واحد هو معسكر "جهاد وال". فوجئنا أن الكمية كانت محترمة جدا لدرجة أثارت حسد وجشع الذين حولنا خاصة رجال حكمتيار فى معسكرهم القريب الذى يحمل نفس الإسم "جهاد وال"

وكان أسامة بن لادن قد إستعار تلك القطعة من الأرض ليبنى عليها معسكرا لقاء منحة شهرية إعتبرت ضمنا إيجارا يتدفع مباشرة إلى إدارة معسكر حكمتيار.

وإستمر أمير حزب إسلامى يتقاضى تلك "الإتاوة" من المسئول العربى من جهاد وال حتى بعد إنتهاء الجهاد، وأصبح كل العرب فى معسكر"جهادوال" لايزيد عن عشرة أشخاص منسيين وسط الجبال، ويأكلون بالقرض من دكاكين خوست.

لم يتوقف العرب عن دفع الإتاوة إلا بعد وصول حركة طالبان إلى خوست وفرار "فايز محمد" أمير "جهاد وال" الأفغانية. مصطحبا معه ممتلكات الحزب الإسلامى من أسلحة وذخائر وسيارات، وفور وصوله إلى ميرانشاه فى باكستان باع كل شئ فى أسواق القبائل.

قبل فراره كان "فايز محمد" يطالب صديقنا "أبو العطاء" أمير عرب جهادوال، أن يسلمه تلك الذخائر التى لديه، لأن العرب لا يحتاجونها بينما الحزب يحتاجها "للجهاد" ضد مسعود فى كابول. ثم طالبه بسيارة "بيك آب" لأن العرب لديهم إثنتان وهو يرى أن واحدة تكفيهم. ثم هو يطالب أيضا بأخذ التراكتور "الجنرال غرزتور الذى خاض معنا معارك خوست وجرديز وهو فى حالة غرز معظم الوقت".

ثم إستولى ذلك اللص بالقوة على إحدى سيارات المعسكر ولم يعدها إلا بعد أن إستنجد أبو العطاء بكبراء المنطقة، الذين أنبوا فايز وهددوه لأنه تخطى الأعراف وتعدى على ضيوف أغراب مجاهدين.

ترمس يا غجر!!

كان أبوالعطاء ومن معه من مدربين من أكبر المتحمسين لحركة طالبان، وأكثر من أسعدهم وصول الحركة إلى خوست. فقد تخلصوا من بلطجة "فايز محمد" وآخرين فى المنطقة شعروا بضعف هؤلاء الشباب وقلة عددهم وعزلتهم، فمارسوا معهم السرقات وقطع الطريق والسطو المسلح، وأخيرا بث الألغام فى طريق الذى تسلكهه سيارتهم إلى خوست.

حدث أن سكن أحد اللصوص بالقرب من ذلك الطريق،ومارس تلك الأعمال جميعا،مضيفا إليها سرقات ليلية من المعسكرات. ذلك اللص كان ضابطا سابقا فى الجيش. وهو من قبائل زدران ولجأ إلى مناطق قبيلة جربز، فى حالة "لجؤ إجرامى"، خوفا من عمليات إنتقامية تنتظر عودته فى زدران قبيلته.

هذا الضابط اللص هرب من المنطقة أيضا عندما وصلت حركة طالبان إلى خوست.

كل هذا الإستضعاف لعرب معسكرات خوست يجرى بشكل يومى تقريبا، بينما راديو موسكو لايمل من إتهام تلك المعسكرات بممارسة الإرهاب الدولى،(لأنها تدرب المجاهدين الطاجيك) .

كنت أضحك عند كل حادث سرقة وأقول لأبو العطاء وإخوانه: أى نوع من الإرهاب الدولى أنتم؟؟ كل يوم تسرق معسكراتكم ، وتنهب سياراتكم على الطرقات!!.

ألطف حوادث السطو هو ماتعرض له صاحبنا أبودجانه الملاكم الشرقاوى.

أثناء عودته من خوست وجدناه يدخل علينا من بوابة معسكر "جهاد وال" وهو يصيح بأعلى صوته : ترمس ياغجر .. ترمس يا غجر.

سأله إخوانه عن سر تلك الصيحة ومعناها، فقال لهم إنها نداء أحد البشاوات القدماء فى مصر عندما فقد كل ثروته فراح يحصل على رزقه من بيع الترمس للعوام على الطرقات، وهو يسبهم ناعتا إياهم بالغجر .

سألوه عن مناسبة تلك القصة الآن . فقال : لقد إعترضنى لصوص مسلحون أثناء عودتى من خوست وأخذوا منى كل ما أملك، والآن جئت أبيع لكم الترمس فى معسكر جهادوال.

ضحك الجميع ومنحوة رتبة "باشا" وهى رتبة ينادونه بها دون غيرة رغم أن أكثرهم تعرض لمواقف مشابهة.

فى موضع لاحق سنروى قصة أخرى من بطولات "الباشا" عندما عبر نهر جيحون فأثار الرعب فى نفوس الضباط الروس الذين كانوا يحرسون الجانب الطاجيكى من

الحدود. فإلى هذه الدرجة يمكن أن تختلف الموازين بين شواطئ نهر شمل فى خوست وشواطئ نهر جيحون فى طاجيكستان. فإذا الباشا المفلس المضهد هنا يصبح أسدا مفترسا هناك.

زارنا فى معسكر "جهاد وال" نائب رئيس حزب النهضة "محمد شريف"، وذلك قبل أن يبدأ برنامج التدريب وعندما شاهد الذخائر المكدسة فى ساحة المعسكر قال مندهشا: "هذه الذخائر تكفينا لفتح طاجيكستان".فى الواقع لم تكن الذخائر كبيرة إلى ذلك الحد.

كان ذلك فى شتاء١٩٩٢ وكنا مجتمعين فى ذلك المعسكر لبحث قضية طاجيكستان، وفشلت وقتها فى إقناع القاعدة أن تتبنى مشروع طاجيكستان بشكل كامل.

كان أبو حفص على وشك الموافقة، وكذلك بعض أعضاء مجلس الشورى، ولكن دعاة إستقلالية القرار غيروا الموازين مكتفين بدعم تحرير الجمهوريات الإسلامية بفائض الذخائر الموجودة لديهم فى معسكراتهم المهجوورة، وكانوا مصرين على سحب جميع كوادرهم من أفغانستان وعدم المساهمة معنا بأى عنصر.

للأسف إنتصرت وجهة نظرهم تلك. ولولا إبعادهم من السودان لسحبوا حتى العناصر العشرة الذين تبقوا فى "معسكرات خوست للإرهاب الدولى"!!.

إن مفهوم إستقلالية القرار عند هؤلاء تعنى رفض أى فكرة تأتى "من خارج التنظيم" مهما كانت. بمعنى آخر فإن الصواب هو ما يأتى فقط من داخل التنظيم، وماسواه فهو خطأ. أو بمعنى آخر عبر عنه أحدهم قائلا : تخرب بيدى ، ولاتعمر بيدك.

وهذا واحد من أسباب كون أمور العمل التنظيمى الإسلامى دائما "خربانة".

أنت خربته .. أنت تصلحة

تبلورت بيننا وبين النهضة فكرة نقل الأسلحة بالطائرات من مطار خوست إلى مطار مدينة طالقان فى شمال أفغانستان حيث المقر العسكرى الأساسى لحزب النهضة

وأكثر مهاجري طاجيكستان إستوطنوا مدينة قندز القريبة من طالقان وصار لهم معسكرات ضخمة من الخيام وبيوت الطين .

النقل بالطائرات سيكون أسهل وأسرع ، وسيجنبنا مشاكل كابول المليئة بالقتال والخطوط المتداخلة للمتصارعين على أطرافها وداخلها، حيث تحتفظ ميليشيات "الجلم جم" بمواقع خاصة ذات سيادة وإن كانت متحالفة مع مسعود ـ ثم ضده بعد ذلك.

حزب النهضة كان يحظى برعاية خاصة من أحمد شاه مشعود ـ رجل كابول الأقوى وبالتالى رعاية حكومة كابول ، التى هى عمليا رهينة فى يده التى تمسك بمفاتيح القوة العسكرية والأمنية فى العاصمة .

وبما أننا حلفاء صميميون لحزب النهضة فقد أصبحنا بشكل غير مباشر أصدقاء لمسعود وحكومة كابول . وشعر حكمتيار تجاهنا بتوجس لا مبرر له رغم أننا جيرانه فى جهادوآل خوست وليس لنا أى إتصال مباشر بحكومة كابول أو مسعود .

كان علينا إصلاح مطار خوست القديم. وكان ذلك موضع تندر من يعرفوننى من العرب . حتى أبوالحارث الذى ضحك قائلا : "أنت خربته وأنت تصلحه".

وفى الحقيقة أن أبوالحارث هو الذى أصلحه ، وبمعنى أدق أشرف على الشركة التى تعمل فى إصلاحة . وهى شركة إعمار تعمل فى خوست ولديها المعدات المطلوبة لإصلاح المدرج المعطوب .

تكفل أبوعبد الرحمن الكندى بعقد إتفاق مع الشركة ودفع مستحقات الإصلاح . وتولى أبوالحارث وعدد من أصدقائه، الإشراف والمتابعة. وكان متواجدا فى خوست وقتها وكان ذلك فى شتاء (٩٢ـ١٩٩٣) ولم أكن قد إنتقلت للإقامة خوست بعد .

العامل الذى كان يقود الآله الثقيلة لتسوية التربة "الجريدر" كان طاجيكيا. وخلافا لإحتياطاتنا الأمنية همس أبوالحارث فى أذنه أن المطار سيكون من أجل المجاهدين الطاجيك . فأثار ذلك حمية الرجل وصار يعمل بحماس إستشهادى .

كنت أسير مع أبوالحارث فوق مدرج ذلك المطار التاريخى قبل البدء فى إصلاحه كنا نتفحص كل شيئ : الطائرات المدمرة وحالة المدرج ،والمواقع العسكرية الحكومية وتحصياتها ، البيوت على الجانب الشمالى للمدرج ، وكانت مواقع إدارية وقيادية . كانت على الحافة الشمالية للمدرج بيوتا حكومية إسمنتيه تحيط بها أشجار وحدائق أصبحت مثل الغابات الوحشية لإنعدام العناية بها طول فترة الحرب .

الطرف الشرقى للمدرج ذكرنى بكرامات راجمة صاحبنا عثمان الصعيدى التى كانت تحرن وتستعصى على التضبيط ، فأثارت بفوضويتها الرعب فى نفوس الطيارين، فنسمعهم يشتكون من خطورة الوضع على الطرف الشرقى ، فيثير ذلك إستغرابنا ، ولكن الإصابات التى حدثت هناك أقنعتنا بجدية شكواهم. وكانت المفارقه هى أن أكثر راجماتنا الخمس خطورة هى تلك التى لا نستطيع تضبيطها!! .

ذلك الطرف الشرقى نواجه فيه الآن مشكلة ـ والسبب هم بعض إخواننا من الكوتشى"البدو" الذين قرروا زراعة الثلث الشرقى من المدرج فأطلقوا عليه المياه حتى يلين حتى يحرثونه ويزرعون قمحاً!! . طلبنا من والى خوست حل المشكلة وديا مع إخواننا ، مبدين إستعدادنا دفع التعويض اللازم لهم . أجرى البدو حساباتهم لأرباحهم المنتظرة من عملية الزراعة بعدد أرادب القمح المتوقعة .

فخيرناهم بين أن ندفع لهم قمحا أو نقدا . فإختاروا الأخير فدفعنا لهم التعويض ونحن لهم شاكرين .فنحن تحديدا عايشنا أدوارهم الرائعة فى معارك الجهاد الممتدة، ودورهم المشهود فى فتح خوست .

إنهم فى تقديرى أفضل وحدات القوات الخاصة فى كل تلك الحرب الطويلة ، وهو دور أدوه بعفوية كاملة ، وبطولة فطرية لا مثيل لها .

بعد طول إنتظار أرسل مسعود أول طائرة لنقل الأسلحة والذخائر من مطار خوست على ضفة نهر شمل ، إلى طالقان على ضفة نهر جيحون .

كان الإستنفار الأمنى على أشده خوفا من حكمتيار ـ أما الجمهور فى خوست فكان يعلم بدور معسكر العرب فى جهادوال فى تدريب المجاهدين الطاجيك، ويعلم أن مطارخوست القديم قد أصلحه العرب لنقل أسلحتهم وذخائرهم للجهاد فى طاجيكستان.

أثار ذلك فخر حماس الجمهور وأعجابه الكبير. فكنا نعامل فى خوست معاملة خاصة كأبطال فى مجتمع يعشق البطولة .

طبعا كان لنا أعداء لا يستهان بهم وهم رجال الميليشيات السابقون ومحبى النظام الشيوعى السابق ، وكانوا لا يجرؤن على الظهور أو إظهار ما فى نفوسهم . فقط كانوا يترقبون الظروف المناسبة .

كان وصول الطائرة حدثا شعبيا فى خوست . فمنذ سنوات لم تهبط طائرة فى المدينة . والجميع يعلم الآن أنها طائرة جاءت لأغراض جهادية ، وكان ذلك مبعث إعتزاز وفخر فى المدينة التى تنفرد فى كل أفغانستان بهذه الخاصية .

كانت الطائرة من طراز (AN ٣٢) وهو نفس النوع الذى كنا نقاومه فى خوست وتم تدمير العشرات منه بمدفعية المجاهدين .

كنا فى إنتظار الطائرة فى المطار ، وهبط طاقمها متوجها على الفور إلى "المقبرة الرئيسية" للطائرات الواقعة فى منتصف الحافة الجنوبية للمدرج . كنت أراقب الطيار وتعبيرات وجه الذى يكسوه شارب ضخم من الطراز"الستالينى". ما أن وقف الطيار على أطلال المقبرة حتى أطلق تنهيدة من أعماق قلبه المحترق ونظرات الأسى المنكسر تطل من عينيه .

فأدركت أنه "كان هنا" ومر بتلك المآساه وفقد فيها أصدقاء . كان الطيار ينظر بعداء لكل من حوله ، فلم يعد لدينا شك فى أنه شيوعى. وتوصل رجال أمن خوست إلى نفس النتيجة. فأخذوه بعيدا عن الأعين، بالذات الأعين العربية، وحجزوه فى أحد مبانى المطار حتى ينتهى تحميل الطائرة .

كنا نظن فى البداية أن حمولة الطائرة هى عشرون طنا، ولكن طاقمها أخبرنا أنها حمولة خمس أطنان فقط ، وللأحتياط فإنهم يحملونها بأربعة أطنان .

كنا قد وضعنا بضاعتنا منذ أيام إلى جانب المقبرة وكان علينا أن نقرر فورا ماذا سنرسل وماذى سنبقى عندنا حتى تأتى طائرة آخرى .

مساعدو الطيار أشرفوا على تقدير الأوزان وتوزيع المواد داخل الطائرة حتى تبقى متزنة وثابتة أثناء الإقلاع والهبوط. كان الجميع يعمل ويساعد بحماس لنيل الثواب، فيما عدا طاقم الطائرة بالطبع.

تجهزت الطائرة للإقلاع ولكنها إنتظرت ولم تتحرك ونحن نتساءل عن السبب. جاءت الإجابة من الحافة الجنوبية للمطار، من القلاع الطينية العملاقة التى كانت قاعدة للميليشيا وحراسات المطار. من هناك جاءت تتهادى غادة حسناء متبرجة، تضع على رأسها خمارا حريريا يغطى جزء من رأسها فقط، وبرفقتها رجل عجوز وثلاثة من الجلاوزة الغلاظ الشداد من القبليين الأصحاء أصحاب الشوارب السنالينية أيضا. أوصلوا الغادة الحسناء إلى سلم الطائرة ، فصعدت إليها.. ثم أقلعت الطائرة.

كنا ننظر بعضنا إلى بعض فى دهشة، وننظر إلى رجال أمنيات خوست، فظهر أنهم كانوا على علم مسبق بما يحدث لأنهم لم يندهشوا مثلنا ولم يسألوا. أنا أيضا لم أسأل وقلت فى نفسى "إن الأرض الأفغانية مليئة بالأسرار".

****

بعد أكثر من شهر جاءت طائرة ثانية وأخيرة. كان علينا بعدها أن نتدبر أمرنا عن طريق البر، وأن نجتاز بشحنتنا الثمينة مهالك طريق طويل إنتشرت عليه عصابات وميليشيات ومتقاتلون من كل جنس ولون. كان رجال حكمتيار يضغطون علينا مطالبين بتلك الأنواع من الذخائر تحديدا لأنهم يعانون من العجز الشديد فيها لأجل "جهادهم" فى كابول. ولكن من حسن حظنا أن رجال إدارة خوست كانوا متعاطفين جدا مع مشروع طاجيكستان بل ومتحمسون له. وكذلك كان القادة الميدانيون

السابقون، وبالتالى القبائل حولنا بوجه عام، مع إستثناءات قليلة. ساعدنا ذلك على البقاء فى موقع الصمود أمام إبتزاز "فايز محمد" الذى كان لايمل من القول أن تلك الذخائر " لن تفلت من يد مسعود".

وللأسف كان قوله صحيحا بشكل من الأشكال.

* إستأجونا شاحنة أفغانية ضخمة، من ذلك النوع المزود بمجنبات خشبة عالية جدا حتى تستوعب أكبر قدر ممكن من البضائع. رتبنا فيها المواد بعناية فائقة لتجنب التلف أو الإنفجار. كنا قد نقلنا كل مالدينا من مواد إلى قلعة "تختة بك" الكبيرة فى مخزنان كبيران، لتسهيل عملية التحميل من خوست.

الطرق وقتها كانت فى قمة التخريب، حتى يصعب القول بأن هناك طرق، فيما عدا إستثناءات قليلة. كانت الطرق فى الشمال أفضل منها فى الجنوب، وكذلك درجة تدمير القرى كانت أقل. ومن درجة تدمير القرى يمكن قياس درجة ولاء أو معارضة الوسط السكانى للمحتلين.

شاحناتنا مرت بسلام حتى نهاية خطوط حكمتيار على حدود كابول، وهناك إعترضها أحد قادة حكمتيار الذى صادر الشحنة كلها وأعاد لنا الشاحنة فارغة.

- أقمنا الدنيا ولم نقعدها، وإتصلنا بكل من يمكن أن يفيدنا الإتصال بهم . وذهبت مع عبد الهادى إلى منطقة " تشار آسياب" على حافة كابول والتى يتمركز فيها فريق أبو معاذ الخوستى، ومعهم أبو الشهيد اليمنى وهو من كبار مؤيدى حكمتيار وأول من حذر قبل سنوات من إنحرافات مسعود وشبهه "بأتاتورك".

كان منظر الشباب العرب هناك مؤثرا، فمعظمهم من الشباب الجدد صغار السن. كانوا غاية فى الحماس والرغبة فى التضحية. يعيشون فى مبنى عسكرى قديم فقد كل مقوماته كمبنى سوى الجدران. فأستعاضوا عن الأبواب والنوافذ بتعليق بطاطين عسكرية قديمة.

إنضباط الشباب قليل كالعادة، والروحانيات الجهادية مرتفعة كالعادة أيضا، والشهداء يتساقطون يوميا كنتيجة منطقية لهذا المشهد كله.

كنت أشفق على تلك الطاقات النادرة من ذلك الهدر المتعمد . كان أبومعاذ عاتب علينا لأن تركنا الجهاد فى منتصف الطريق قبل أن يصل غايته بإقامته حكم إسلامى خالص. ونحن كنا لا نرى مجاهدة حكومة مختلطة "شيوعية إسلامية " بجهاد مختلط "شيوعى إسلامى".

لم نتحاور مباشرة فقد كان حياؤه يمنعه من مجادلتى مباشرة ، ربما لفارق السن ، وهو شاب مع شجاعته العظيمة كان أيضا على خلق عظيم وحياء . فكانت الحوارات تدور بين وسطاء ـ وأحيانا كان عبدالهادى هو وسيطنا فى الحوار مع تلك الجماعة التى ربطتنى مع القدماء منهم محبة وثقة ميدانية عالية وعميقة .

بالنسبة لأسلحتنا المصادرة عمل عرب حكمتيار كمحور ضغط قوى لمصلحتنا ، وبالإضافة إلى محاور ضغط آخرى تمكنا بعد عدة أسابيع من إستعادة جميع ما فقدناه ، فيما عدا صاعق واحد لصاروخ كاتيوشا.

كنا نسجل تفاصيل كل شحنة ونحتفظ بنسخة عندنا ونرسل نسخة أخرى إلى حزب النهضة على الطرف الآخر فى طالقان.

إستأنفت الشاحنة سيرها ، وكان حزب النهضة يتكفل بمتابعتها فى مناطق حلفائه أى مسعود وباقى حكام كابول .

عبرت الشاحنة ممر سالانج بخير ، ولكن بعده بقليل وفى محافظة "بغلان" إعترضها قائد من الطائفة الإسماعيلية وإحتجز الشاحنة بما فيها .

إستغرق ذلك وقتا أطول حتى نبحث عن حلفاء هذا الرجل للضغط عليهم ، فإكتشفنا أنه صديق لعدونا اللدود عبد الرشيد دوستم ، الذى يقاتله إخواننا العرب فى خطوط كابول (وقاتل العرب ضده فى جلال آباد ١٩٨٩ ـ وفى خوست ثم جرديز ١٩٩١ ـ وفى شمال أفغانستان أثناء الحرب الأمريكية عام ٢٠٠١) .

أثناء الأسابيع التى إنقضت حتى الآن فى رحلة شاحنة المتاعب تلك، تبدلت التحالفات داخل الصراع الأفغانى وتحول دوستم وحكمتيار إلى حلفاء فى مواجهة مسعود وزعماء كابول .

أى أن شاحنتنا وقعت مرة آخرى فى قبضة حكمتيار بشكل غير مباشر. والمشكلة هنا أن دوستم عنيد ومتقلب ولا يتخيل أحد أن حكمتيار يمكنه ممارسة ضغط عليه ، خاصة وأن التحالف بينهما يقف على حافة العداء وفوق بحر من الدماء المسفوكة فى كابول . إذن اللجوء إلى حكمتيار كما توقعنا قد لا يفيد كثيرا ، خاصة وأن رجاله قد صادروا نفس الشحنة قبلا.

كتبت رسالة إلى مولوى جلال الدين حقانى وكان موجودا فى جلال آباد يدير منها مفاوضات وساطة بين الأطراف المتقاتلة فى كابول ـ وكاد يفقد حياته أثناء جولة مكوكية داخل كابول تهدف إلى وقف القتال بين سياف "وحلفائه العرب من الشمال الأفريقى " وبين حزب وحدت الشيعى ، وفقد فى تلك المحاولة واحدا من حرسه الخاص على يد حزب وحدت.

فى رسالتى إليه شرحت أزمة شاحنة الأسلحة وأين إنتهى بها المطاف فى ولاية بغلان. حمل الرسالة إليه رجل المهام المستحيلة أبومعاذ التركى ، وهو من ديار بكر فى تركيا ويجيد الفارسية والعربية ، وله هيكل ضخم مع نظارة طبية تعطيه مهابة أكاديمية ، ثم قدرة روحانية شفافة، وغضبة تركية تظهر عند الحاجة فتطيح بأى ممانعة مهما كانت صلبة .

كان لديه القدرة وقتها فى التردد بين المعسكر وبيشاور ، يتنقل بحرية. يعتقل أحيانا فى الطريق ولكنه لا يعدم حيلة فى الخروج من الورطة. وقد جربت ذلك بنفسى معه عندما تسللت فى شهر رمضان إلى بيشاور لزيارة عائلتى سراً ، فإعتقلتنا الشرطة فى الطريق. لكن بفضل ابومعاذ، ظنت الشرطة أننا أوزبك من أفغانستان وكادوا يصطحبوننا إلى السجن ، ولكن أذان المغرب فى رمضان ، ثم روحانيات أبومعاذ

حركتهم قليلا.. وفى الأخير غضبة تركية ساحقة جعلت داورية الشرطة تسرع فى التخاص منا بإطلاق سراحنا فورا .

ذهب أبومعاذ بالرسالة إلى جلال آباد ، وجلس كى يستمع إلى رد حقانى عليها ، الذى قال له بالنص : (إن ما تطلبونه هو المستحيل الأكبر فى أفغانستان حاليا) .

هذه الجملة بالكامل سمعها حكمتيار وهو يدخل إلى الغرفة فسأل عن الخبر . فقص عليه حقانى قصة الشاحنة .

وفى حركة شهامة نادرة المثال قال حكمتيار إن المسألة بسيطة وأنه يعرف الرجل فى بغلان جيدا وسيتصل به اليوم للإفراج عن الشاحنة وما فيها.

ضحك حقانى وخاطب صاحبنا التركى قائلا: (هذه أحدى كرامات مشروعكم فى طاجيكستان).

وبالفعل وفى حكمتيار بوعدة، وحصلت الشاحنة على حريتها ووصلت إلى مجاهدى النهضة فى طالقان وسط فرحة غامرة .

أرسلنا شاحنة ثانية بخط سير أقصر . كان علينا العبور بالشاحنة من خطوط حكمتيار الأمامية فى كابول ، وعندها تستلمها النهضة وتوصلها إلى مطار كابول . ومن هناك تنقلها طائرات مسعود إلى محطتها النهائية فى طالقان .

*****

أمصال ضد النجاح :

رضوان وأخيه جمعـ ـ ـ ـة

المصل جراثيم ضعيفة تحقن فى الجسم حتى يفرز مضادات لها ، فيكتسب حصانة تفيده فى صد الجراثيم القوية عندما تهاجمه .

هناك مصلا إجتماعيا تصنعه الدول القوية وتحقنه فى جسد الشعوب الضعيفة فتكسب مناعة ضد التحرك فى المسار الصحيح .

هذا المصل يكون غالبا على هيئة زعيم أو قائد تصنعه الدول القوية وتحقنه فى جسد الشعوب الضعيفة ، فيأخذها فى مسار خاطئ يزيدها ضلالا وتحطيما، "يحميها" من أى تحرك صحيح فى الإتجاه السليم .

حدث ذلك فى بداية القرن العشرين فى تركيا حينما صنعت لها بريطانيا بطلا قوميا منتصراً يرفع راية التطوير والإصلاح (الإنتصار العسكرى والإصلاح كانا أهم أحلام الشعب) فجاء أتاتورك وأطاح بالإسلام فى تركيا وصنع جيشا قويا ليكون حاجزا بين عودة الشعب إلى دينه .

ربما كان العالم الإسلامى أكبر مستهلك للإمصال الفاشلة التى تنتجها الدول الكبرى لتحقنها فى الجسد الإسلامى، ليس لعلاجه بل لقتله وتوطين الأمراض المستعصية فيه.

* كانت قيادات النهضة كلها من "الأساتذة" أى المدنيين. ولا أظن أن بهم أحدا قد خدم فى الجيش. وحتى عندما طلبنا منهم تعيين شخص واحد ليقود القوة المركزية، لم يقدموا لنا أحدا. كان ذلك موضع عجبنا فكيف تعلن حركة ما الجهاد وليس لديهم من يمكن تجهيزة لتولى قيادة عسكرية؟؟.

ذكرنى ذلك بالشباب السورى الذين وفدوا إلى أفغانستان بعد فشل تجربتهم الجهادية فى سوريا. كانوا يقصون علينا حكايات عجيبة عن قيادات للعمل الجهادى ليس لها أدنى إهتمام بالعمل العسكرى. كان الشباب يصفون تلك القيادات بأبشع النعوت التى تبدأ بالعجز والتقصير وتنتهى بالخيانة مرورا بالسرقة والعمالة للخارج.

تكررت التجربة بحذافيرها فى أفغانستان، مع تضخيم كبير يتناسب مع حجم التدخل الأمريكى فى جهاد الشعب الأفغانى ، الذى تحول فى مجمله إلى حرب بالوكالة، وعمل تجارى مربح للكثيرين.

مرة أخرى ها نحن فى طاجيكستان أمام تجربة جهادية جديدة، تعتمد على تراث من العمل الإسلامى الجهادى الفاشل فى أواخر القرن العشرين، وفى عصر القطب الواحد الذى حدد لنفسه سياسة صارمة تجاه الإسلام تتلخص فى محو أثره من الحياه العامة ، وتقليص آثارة على الحياة الشخصية للمسلمين.

أما دور الإسلام فى السياسة الدولية فقد قضوا عليه بسقوط الدولة العثمانية إثر هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى . فقط سمحوا للمسلمين بلعب دور فى السياسة العالمية بعد ذلك ضمن حروب بالوكالة فى أفغانستان والبوسنة والشيشان وبعدها طاردوهم بتهمة الإرهاب الدولى بعد أن أدوا الدور المطلوب منهم. وإن كانو قد تجاوزوه قليلا فى أفغانستان، وحققوا بعض مطالبهم، لذا كان عقابهم هناك مضاعفا.

* الصرامة الأمريكية فى مكافحة الإسلام هى صرامة إستراتيجية، أما على المستوى التكتيكى فهى تتميز بالمرونة، إذ لها سياسة خاصة تجاه كل حالة إسلامية على حدة.

بعد فتح كابول ظهرت فى وقت متقارب، ثلاث حركات جهادية، فى كل من طاجيكستان والشيشان والبوسنة.

إزاء كل حركة من هذه كان لأمريكا سياسة خاصة، مناسبة لمصالحها.

فى طاجيكستان: كان مطلوبا فرض الهدؤ فى كل الجمهوريات الإسلامية، السوفيتية سابقا. فتحرك الأمريكان مباشرة وعبر عملائهم والمتعاونين معهم، وعبر حكومة كابول "الإسلامية"، وحكومات إسلامية عديدة يمكنها التأثير والعمل على الساحة الطاجيكية من مداخل اللغة أوالدين أو النفوذ السياسى.

وعند الضرورة أمدت أمريكا العناصر الطاجيكية المناوئة للجهاد بالأسلحة والأموال عبر سفارتها فى دوشنبه .

وعلى هذا الأساس أيضا وافقت واشنطن على بقاء فرقتين عسكريتين روسيتين مع قواعد جوية لحماية النظام الذى كان الأضعف من بين التركة السوفيتية .

فى الشيشـــان : كان المطلوب أمريكيا طرد النفوذ الروسى منها وحرمانهم من إمتيازاتهم النفطية هناك. فتم تسهيل العمل الجهادى العربى وتنقله عبر تركيا وجورجيا، وفتح الطريق أمام إمداداته المالية والبشرية من السعودية ودول الخليج .

فى البوســنة : كان المطلوب هناك أيضا مطاردة النفوذ الروسى وطرده من وسط أوروبا ، وتحجيم المجموعة الصربية "أرثوذكس" الموالية مذهبيا وتاريخيا للروس وتحجيم المجموعة الكرواتية الكاثوليكية ذات الولاء الأوروبى.

وضرب هؤلاء بالصرب المسلمين المطلوب إضعافهم إلى أقصى حد ومنعهم من تشكيل أى وزن سياسى له قيمة.

فتم تشجيع "الجهاد البوسنى" بتلك الحدود والمواصفات السياسية الأمريكية ـ فتوافد المجاهدون العرب إلى البوسنة ، خاصة خريجى مدرسة أفغانستان، التى دشنوا فيها مدرسة بغال التحميل، التى تقدم مجانا أفضل الخدمات القتالية بحماس دينى نادر المثال. إلى ان تتلقى الجزاء الأوفى: طلقات فى الرأس والظهر على يد الراعى الأمريكى وحلفاؤه العرب والدوليون .

أما علماء البنتاجون ، فى السعودية وسواها ، فقد واصلوا بث الفتاوى الجهادية والخطب النارية لحشد الشباب " للجهاد على الطريقة الأمريكية وفقا لإحتياجات البنتاجون " .

الدورات التدريبية فى معسكر الفاروق كانت مستمرة ، وكذلك الهجمات الإعلامية الروسية لا تنقطع طول اليوم عن "معسكر خوست الإرهابى" والإرهابيين العرب الذين يدربون المخربين الطاجيك.. الخ

ظهر فجأة فى الإذاعة الروسية والطاجيكية حدث ضخم ، يتابعونه على مدار الساعة وهو ظهور بطل وطنى يقاتل الحكومة والروس ويحرز إنتصارات باهرة ، وله مغامرات مثيرة تبث تلك الإذاعات تفاصيلها .

مبدئيا شعرت بالإرتياب مستعيدا قصة تصنيع مصطفى كمال أتاتورك بطلا قوميا لتركيا على يد بريطانيا والأوربيين .

ولعدة أشهر كان البطل الوطنى الطاجيكى الجديد ـ ويدعى رضوان ـ قد صار حديث كل الشعب فى الداخل ، وفى المهجر وحتى فى معسكر خوست .

لم يكن أحد من متدريبينا يعرف عنه شيئا ـ (كان لدينا مندوبا دائما عن حزب النهضة يتابع شئون المتدربين ، وكان ذلك بناء على طلبنا حتى لا يرتاب قادة النهضة فيما يحدث عندنا سواء كان من الناحية السياسية أو المذهبية ـ كان ذلك المندوب ويدعى "أبوجيحون" وهو مدير سابق لأحد المصانع ، ومتطوع سابق أيضا فى القوات السوفيتية الغازية لأفغانستان وكان يعمل مترجما لتلك القوات آنذاك) .

أرسلنا مندوب النهضة إلى قيادته فى كابول لمعرفة حقيقة ما يجرى فى طاجيكستان حول البطل الجديد "رضوان " لأن ذلك وثيق الصلة بنشاط القوة التى يجرى تجهيزها فى الفاروق. (كان حدسنا فى ذلك غاية الدقة لأن الضربة القاضية لتلك القوة جاءت على يد رضوان وأحمد شاه مسعود) .

جاء رد النهضة أن رضوان مجرد مجرم عادى خارج عن القانون وأن الأحداث التى تذاع عن عملياته العسكرية ضد الروس والحكومة غير حقيقية .

مرة أخرى تذرعت بالشكوك ، فلربما أن قادة النهضة العازفون عن العمل العسكرى يخافون على زعامتهم من قيادة حقيقية نبتت من الداخل وليس فى المهجر.

ثبت بعد وقت ليس بالطويل أن معلومات النهضة كانت صحيحة ولكن ذلك لم يمنع ما ظهر أنه خطة محكمة التدبير متعددة الرؤوس .

عبر رضوان نهر جيحون وسط ضجة وصخب إعلامى بأنه "أفلت" من يد القوات الروسية. فإستقبله المهاجرون الطاجيك فى شمال أفغانستان إستقبال الأبطال وإنحنت النهضة للموج الشعبى وسايرته . ولكنها ظلت منحنية له أبدا حتى قضى عليها كحركة جهادية، بل إستولى فعليا على قيادة النهضة كما سنرى.

أحمد شاه مسعود إستقبل رضوان إستقبال الأبطال ، وأخذه معه إلى كابول ، لتدريسه العلوم العسكرية !!. وبعد عدة أشهر أعاده للنهضة بصفة "وزيرا دفاع !! ". ليس هذا

فقط بل مندوبا ساميا من طرف مسعود ، لتنفيذ إرادته فى حزب النهضة وعمليا إستولى مسعود على حزب النهضة من خلال رضوان وقبضته التى ما لبثت أن تلوثت بدماء أبطال مجتهدين وعلماء مؤسسين.

إذن أصبح رضوان قائدا لحزب النهضة بناء على سمعته الإعلامية، وبطلب من مسعود ومعه حكومة كابول وقطباها آنذاك برهان الدين ربانى، ومستشاره فوق العادة عبد الرسول سياف، (الذى لم يشغل منصبا رسميا فى حكومات كابول بل إكتفى بدور صانع الملوك ، فهو مهندس الحكم منذ الحكومة التى ألفها فى بيشاور وقبض أتعاب ذلك من تركى الفيصل، عشرات الملايين من الدولارات) .

إشتهر رضوان بين الطاجيك أنه يتكلم من فوهة المسدس . فقتل الكثيرين بمسدسه وبشكل مباشر وبلا محاكمة ، فى مجرد نقاش أو ثورة غضب ، أو محاكمة سريعة تستغرق عدة جمل ، وبعدها يكون القتل بمثابة إعلان قرار الإدانة وتنفيذ الحكم .. وبطلقة واحدة .

وعند وصولنا إلى مدينة طالقان ، كانت دماء أحدهم لم تجف بعد. والقصة مثل دماء الضحية مازالت جارة . وساحة الإعدام كانت غرفة الإجتماعات أثناء جلسة تنظيمية عالية المستوى يرأسها عبد ا نورى زعيم النهضة .

أحدهم وكان من علماء الدين الكبار فى النهضة، طالب فى الجلسة بعقد محاكمة لرضوان لمحاسبته على جرائم القتل الكثيرة التى إرتكبها بلا وجه حق ، وبدون محاكمات أو أوامر من النهضة.

كان المعارض لرضوان شخصية لها وزن كبير داخل وخارج النهضة، وكانت إنتقاداته هى الأشد التى يتعرض لها رضوان، خاصة فى إجتماع على هذا المستوى التنظيمى الرفيع. لقد ظهر الإرتياح على وجوه الحاضرين لهذا الهجوم وكأن الجلسة كانت مهيأة لما هو أكثر من قرار بالشجب والإدانة. فربما وصل الأمر إلى قرار بالعزل ومحاكمة لابد أن يكون الإعدام حكمها المنطقى.

إستنجد رضوان بمسدسة الذهبى حلال العقد والمشاكل. وأمام الجميع وبحضور عبدا نورى زعيم النهضة أطلق رضوان رصاصاته المعتادة القاتلة . وإنفضت الجلسة بخروج عبد نورى مسرعا باكيا منهارا ، لأنه كما قال وهو يبكى لم يدفع الظلم عن رجل صدع بالحق . ثم قال أنه لن يسكت، ولكنه سكت ونسى الموضوع .

وصلنا إلى طالقان فى عصر أحد الأيام من شهر يونيو١٩٩٤ . كان معى عبد الهادى العراقى مدير التدريب وأبوحسين المصرى (من أحفاد أحمد عرابى باشا) وخبير بالشمال الأفغانى ، وأبو على المصرى (مهندس الالكترونيات) وهو الآخر خبير بالشمال الأفغانى ، ثم أبو أمامه المصرى ، وهو الضلع الثالث فى مثلث الشمال سابق الذكر حيث قضى ثلاثتهم سنوات فى الشمال ما بين الجهاد والعمل الإغاثى .

كان معنا حوالى ثمانين متدربا ، هم كل من إستطعنا تدريبهم وتجهيزاهم طول الفترة الماضية . ومن المفروض أن نصاحبهم للعمل سويا فى طاجيكستان. سيبقون هناك ونعود نحن مع تساقط الثلوج وقبل إغلاق طرق الشمال .
كان وصولنا قد تأخر عن المقرر نتيجة صعوبة إيصال الأسلحة والذخائر .
الإتفاق الأساسى مع النهضة كان أن تعمل القوى الجديدة ككتلة واحدة ولا يتم توزيع أفراها على المجموعات العاملة فعليا فى طاجيكستان .
وأن تحركها من منطقة إلى أخرى يتم حسب إحتياجات تحددها القيادة العليا السياسية والعسكرية. وفى أى منطقة تنتقل إليها تعمل بالتعاون الوثيق مع المجموعات المحلية.
كانت تلك النقاط تحديدا أهم ما حرص رضوان على تخريبه: فلا قوة تبقى متماسكة ، ولا نحن ندخل إلى طاجيكستان .
كان القرار قد أتخذ فى كابول (وربما فوق ذلك المستوى) ، والتنفيذ يقوم به رضوان فى طلقان .
عند وصولنا إلى مقر قيادته فى طالقان صافحنا رضوان ببرود بينما تحيط به قوة كبيرة من حرسه الخاص. وهم شباب صغار السن يحملون شتى أنواع الأسلحة بما فيها مضادات الدروع "!!" . ويسيرون حوله واضعينه فى مركز دائرة ، يتقدم نصفهم بوجهه ، ونصفهم الآخر يتحرك بظهره حتى يحمى المؤخرات"!!" . كل ذلك داخل مبنى ضخم يحيط به سور كبير ذو حديقة بها عدد كبير من الأشجار .
وأول عمل قام به رضوان أن طلب تجميع القوة الطاجيكية التى معنا فى مبنى على أطراف البلدة . واحتجزنا نحن فى ضيافته .
علمنا ما حدث فى اليوم التالى، إذ فر عدد من الشباب جاءوا إلينا مستنجدين.
لقد صفهم رضوان ووقف أمامهم خطيبا سابا إياهم بأقذر النعوت . مسفها تدريبهم وما تعلموه متوعدا كل من يخرج عن طاعته منهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .
ثم فرقهم أفرادا ومجموعات صغيرة جدا على عدد كبير من الأماكن ، ساحبا منهم الأسلحة مكلفا إياهم بأحط الأعمال. قائلا أنه هو قائدهم الأوحد وأن عملهم ليس القتال ، بل الخدمة فى المكاتب والبيوت .
(طالنا جانب لا بأس به من السباب ولكن الشباب إستحوا من نقله إلينا، لكن مصادر أخرى لمحت لنا به).
بالتدريج يجئ إلينا الشباب يشتكون، وقد جرحت كرامتهم بعمق، وتحطمت آمالهم وكبريائهم بقسوة. فكر بعضهم بالتمرد والثورة، وبعضهم طالبنا بالذهاب معهم إلى طاجيكستان وأن نبدأ هناك من الصفر. وآخرون يطلبون المشورة أو الإذن لهم بالفرار إلى قراهم والجهاد من مناطقهم.
من جانبى رفضت رفضا جازما أن نكون طرفا فى أى إنقسام أو فتنة داخل النهضة. فقد أدينا ما إلتزمنا به معهم، وأن قيادتهم مسئولة عن الإخلال بباقى الإتفاق، ونحن

لانستطيع إرغامهم على فعل شئ لايرغبون فيه. لقد جئنا فقط لتقديم ما فى طاقتنا من المساعدة لحزب النهضة.
ظللت لعدة أيام يراودنى الأمل فى أن تحل تلك المشكلة عن طريق كبراء النهضة فى طالقان. وكان رئيس الحزب ونائبه متواجدان هناك وكانت علاقتنا بهم وبعدد من كبار النهضة علاقة قوية وصافية. تكلمت كثيرا مع رئيس النهضة حتى توصلت إلى نتيجة مفادها أن الأمر ليس بيدة، فأسقط فى يدى. ولكننى تذرعت بالصبر لعل الأمور تنفرج بشكل ما، خاصة وأن معارك عديدة تجرى على الجانب الطاجيكى من نهر جيحون، وفى عمق البلاد أيضا. وفى هذه الأجواء قد تظهر لنا وللقوة المركزية فائدة.
بالفعل حدث إضطراب كبير فى بادخشان الطاجيكية. قائد كبير من النهضة إنغمس فى عملية قتال وتفاوض مع القوات الروسية والحكومية. إستشارنى السيد نورى فى الموقف، فلمس عندى بعض الدراية بأشياء تفصيلية. فقد كان لنا مجهود كبير فى جمع كل المعلومات المتاحة عن طاجيكستان وأوضاعها ومجريات الأحداث فيها.
عرض نورى إصطحابى معه للمشاورة بعد ثلاثة أيام حيث تقرر أن يجرى إتصالات لاسلكية مع قيادات بادخشان، سيتحرك لإجرائها من موضع متقدم من شمال أفغانستان.
الشاب الأوزبكى "محمد طاهر" كان وقتهاعضوا فى مجلس شورى النهضة.
(ترك طاهر النهضة بعد ذلك وشكل حركة إسلامية أوزبكية تحت قيادته. قاتل وجماعته ضد الغزو الأمريكى لأفغانستان، وقتلته القوات الباكستانية فى منطقة القبائل مع عدد كبير من أنصاره). **أنظر كتاب صليب فى سماء قندهار.**
إصطحبنا "محمد طاهر" إلى منزله على أطراف طالقان. وأسر لى طاهر أن هناك ترتيبات لقتلى أثناء رحلتى القادمة مع عبد ا نورى ، وأن رضوان رتب الأمر. ثم رجانى ألا أذهب.
كان طاهر محل إحترام وثقة الجميع. كان الخبر صحيحا وجديا. فقررت وقتها أن مهمتنا فى طالقان قد إنتهت، وأن علينا العودة إلى خوست فى أسرع وقت.
إجتمعت مع طاقمنا العربى كله: عبد الهادى، أبو الحسين، أبوعلى ، أبو أمامة. أطلعت المجموعة على الخبر الذى جاء به طاهر. تبادلنا وجهات النظر، وبينت لهم بأننا يجب أن نغادر فورا. فنحن هنا معزولون فى منطقة معادية لنا. وحزب النهضة الذى تعاملنا معة ليس له وجود ، فالقوة فى طالقان هى فى يد رضوان . والشمال الأفغانى كله فى قبضة مسعود. إذن لايمكننا البقاء هنا ولا التقدم نحو طاجيكستان وسط بحر من القوى المعادية ، لأن معنى ذلك أن نصطدم مع رضوان القائد العسكرى لحزب النهضة، فنشعل فتنة جدباء لن نربحها بأية حال ولن تفيد الشعب الطاجيكى بشئ، وسوف يتضرر باقى إخواننا العاملين فى طاجيكستان بل سيتعرضون لخطر شديد. وربما يتعرضون للقتل أينما وجدوا على يد عناصر رضوان فى حزب النهضة ومساعده مسعود ورجاله.

وافق الجميع على ما أقول إلا المهندس أبو على الذى غضب من تراجعنا أمام رضوان وطالب بالإستمرار فى عملنا ولو إقتضى الأمر مواجهة رضوان وعصابته بالقوة، وأن الكثير من الطاجيك سوف يدعموننا فى ذلك ويقفون إلى جانبنا.
ولكننى وباقى المجموعة قررنا المغادرة فى أسرع وقت لتفويت الفرصة على إفتعال فتنة قد يضيع فيها كل العرب العاملين فى القضية الطاجيكية.
(كان للعرب وقتها مجموعتان عاملتان فى جهاد طاجيكستان : مجموعة من الأفراد المبعثرين العاملين داخل طاجيكستان مع مجموعات مختلفة من المجاهدين. ثم مجموعة أخرى تعمل من الطرف الأفغانى لنهر جيحون، قريبا من طالقان، ضد المواقع العسكرية للجيش الطاجيكى فوق الجبال على الجانب الآخر من النهر، يقود المجموعة "خطاب" وهو شاب سعودى من خريجى "مدرسة جلال آباد". وكان له هناك مجموعته المستقلة. عندما تحول خطاب ومجموعته إلى الشيشان صار قائدا لكل العرب هناك وصار له نفوذ قوى وقدرات مالية وإعلامية كبيرة).
*****

الفاروق: معسكر الجهاد المتألق

بهذه النهاية لرحلتنا تلك إنقطعت فعليا صلتى بالقضية الطاجيكية ,لكن بقيت على علاقة ودية مع السيد عبد ا نورى، بعد فترة قطيعة أعقبت رحلتنا تلك.
بعد العودة كان عندى مشكلة فى تسليم معسكر الفاروق وما فيه من أدوات وأسلحة إلى القاعدة، حيث أننى إستلمت هذه الأشياء بشكل شخصى. رفض مسئول القاعدة فى "جهادوال" إستلام أى شئ إلا بعد إستئذان قيادته فى الخرطوم!! ، ولم ترد القيادة على تلك المسألة ولا على غيرها من المسائل حتى عم الإحباط كوادر القاعدة وظنوا أن قيادتهم قد نستهم تماما.
بدأت فى كتابة الكتاب الأول من "أدب المطاريد" منتظرا إستلام القاعدة لمعسكر الفاروق، فإما أن يستمروا فى عملية التدريب أو أن يغلقونه، ويسحبون مدربيهم إلى الخرطوم.
إستمرت النهضة فى إرسال متدربين متفرقين خارج مشروع القوة المركزية.
بدأ إهتمامهم يتزايد بفقرة واحدة من برنامج تدريبنا السابق وهى فقرة تدريبات "حرب المدن". وهى فقرة شيقة وجذابة جدا للشباب وكان يشرف عليها مدرب غاية الكفاءة والقسوة لدرجة تثير الخوف والرهبة فى نفوس المتدربين.
كان المدرب شاب إيرانيا يدعى "صلاح الدين". الذى أقام من أجل دورته معسكرا بعيدا عن الفاروق مكونا من ثلاث خيام فقط فوق هضبة صغيرة بين جبال منعزلة بالقرب من جدول ماء. وكان الوحيد من بين المدربين الذى إنتزع لنفسه الحق فى إستخدام قبضات يديه وركلات رجليه فى إقناع تلامذته بأن يفهموا ويتقنوا العمل. كان عدد تلامذته فى العادة لايزيدون عن خمسة عشرة، يتساقط أكثر من نصفهم أثناء الدورة من الإعياء أو بالرسوب . الغريب حقا أنهم كانوا يتوسلون للعودة مرة أخرى

لإعادة الدورة. وكانت قيادات النهضة ترسل المتدربين وتتوسط أحيانا من أجل إعطاء فرصة أخرى لبعض الراسبين. كان لصلاح الدين صلاحيات كاملة داخل دورته، ومن جانبنا وفرنا له أقصى ما هو متاح لدينا من إمكانات، فقام بعمله على أفضل وجه.

* بدأ محمد طاهر يرسل متدربين من جماعته الأوزبكية التى لم تكن قد أعلنت بعد، وكانت مشاكلهم فى معسكر التدريب أقل بكثير من مشاكل الشباب الطاجيك.

* لم نلبث أن علمنا أن وفدا من مجاهدى الشيشان جاء إلى بيشاور، فذهبت لمقابلتهم. كانوا يعيشون فى بيت إستأجره حزب النهضة فى بيشاور. ذهبنا إليهم بسرية تامة وسط أخطار شديدة علينا فى ذلك الوقت. كان ضمن الوفد الشيشانى الشاب البارز "شامل باساييف"، وهو حفيد الإمام شامل أسطورة الجهاد ضد جيش القياصرة الروس فى القوقاز فى القرن الثامن عشر. الشاب "شامل باسييف" تحول هو أيضا إلى أسطورة للجهاد ضد الروس فى الشيشان بعد الإنهيار السوفييتى.

كان شامل يرغب فى زيارتنا فى خوست لمعرفة أساليب حفر المغارت ، فقلت له إن خوست غنية جدا فى هذا الجانب. وكنت أنوى أن أقوم معه بجولة واسعة لتعريفه بنشاط الحفريات وأثرها فى العمليات التى جرت هناك.ومزايا وأخطاء ماهو موجود من مغارات.

لأسباب طارئة غادر شامل بيشاور، ولكنه أرسل إلينا فى الفاروق ستة من المتدربين، أظنهم كانوا أفضل مجموعة تدربت فى خوست على الإطلاق. كانت كل طاقاتهم الجسمانية والعصبية والذهنية متحفزة إلى الحد الأقصى للإستيعاب والتعلم.

كان معسكرنا "الفاروق" وقتها فى قمة التألق الجهادى. كان لدينا دفعة قوية من الطاجيك تتدرب بحماس وثقة، وكذلك دفعة من الشباب الأوزبك مكونة من ثلاثين شابا من الأشداء المتحمسين. ثم أضيف إلى كل هؤلاء هؤلاء العمالقة الستة من الشيشان. هذا التجمع الإسلامى العجيب على غير موعد أوترتيب مسبق أثار حماسة عارمة ومعنويات وروحانيات عالية شملت الجميع من مدربين إلى متدربين إلى العلماء الأفغان الذين يدرسون الفقه والعبادات وأحكام الجهاد. المعلم عبد ا الأفغانى إنخرط هوالآخر فى التدريب بكل حماس. حتى طاقم المطبخ فى المعسكر والذى يرأسة "عبد الحميد". وهو مجاهد قديم فقد معظم قدرته على السمع نتيجة إنفجار قنبلة كبيرة أسقطتها طائرة روسية قريبا منه. كان عبد الحميد وإبن أخته المقارب له فى السن والمجاهد السابق أيضا، كلاهما كانا قريبان جدا إلى مدربى وإدارة المعسكر، ومحبوبان للغاية من الجميع لطيبتهم البالغة ومحبتهما للمعسكر والمتدربين وحماسهما البالغ للمشروع كلة.

كان ذلك مؤثرا للغاية ومثيرا للحماس والتفاؤل بأن روحاً جديدة بدأت تسرى فى الأمة. وأن أمثال ذلك المعسكر هى المصنع الحقيقى للرجال والقيادات .

بعد تخرج المجموعة الشيشانية بعدة أشهر علمنا أنهم جميعا تبوأوا مراكز قيادية كبيرة فى الحركة الجهادية فى الشيشان .
ثم علمت فيما بعد أن خمسة منهم قد أستشهدوا فى القتال ضد الجيش الروسى.
* كنت أرى الإستمرار فى تدريب الشباب الطاجيكى على الرغم من موقف حزب النهضة ، لأن الرهان هو على المستقبل الذى سيكون فيه هؤلاء الشباب فى مواقع قيادية.
كانت قيادات النهضة قد بدأت فى مباحثات مع حكومة بلادهم من أجل "حل المشكلة سلميا" . المفاوضات تمت برعاية الأمم المتحدة وبضغوط حاسمة من حكومة كابول ، ثم الحكومة الإيرانية التى تربطها صداقة عميقة مع حكومة طاجيكستان ومع حزب النهضة ومع روسيا .
وجدنا أنفسنا فجأة أننا الجهة الوحيدة التى تهدد السلم والاستقرار فى آسيا الوسطى .
وكأن معسكر الفاروق فى خوست هو الذى دفع عشرات الألوف من الطاجيك إلى الهجرة من بلادهم إلى أفغانستان بعد أن فقدوا آلاف القتلى وفقدوا بيوتهم وثرواتهم .
حتى "الأخوان الدوليون"، وصمنا بالإرهاب مندوبهم لدى النهضة عندما شاهدنا فى قندوز، إذ ذهب غاضبا إلى أحد قياداتهم متسائلا : ما الذى أتى بهؤلاء الإرهابيين إلى هنا ؟؟ . طبعا نحن لم نتحرك خطوة واحدة فى قضية أفغانستان إلا بإتفاق مسبق مع حزب النهضة ، وهو عضو فى المنظومة الدولية الإخوانية. وحتى ذلك المندوب تحديدا ، كنا قد تعرفنا عليه فى بشاور ونحن مازلنا نضع الخطوط العريضة لمساعدة المسلمين فى طاجيكستان. وكنا نناقش تلك الخطوط مع المجاهد الاخوانى القديم "عبد العزيز على" ـ أبوأسامة المصرى ـ وهو الذى عرفنا بذلك المندوب وقدمه لنا بإسم عباس . وقد حضر عباس المناقشات ولم يعترض على شيئ منها . وكانت بالطبع تدور حول مايمكن أن نقدمه نحن لإخواننا فى طاجيكستان ، وهو التدريب والسلاح.
وحيث أنهم تحت الذبح والطرد من قراهم ومدنهم، فإن حاجتهم للبندقية (التى لدينا) أكثر من حاجتهم إلى "البطانية" التى لدى الاخوان. وعلى أى حال لم يكن لدينا أى مانع بل كنا نرحب بشدة بأن نرسل البطاطين والبنادق فى صناديق واحدة .
على أى حال ، ليس جديدا أن يكون الاخوان أذكى وأمهر منا ومن الجميع فى إدراك متطلبات الوضع الدولى الجديد ، وأن ماكان جهادا فى مواجهة السوفييت ، أصبح إرهابا فى عهد وراثة أمريكا للتركة السوفيتية .
أما ذبح المسلمين وتهجيرهم من ديارهم فلم تعد سوى مشكلة إغاثية إنسانية لا تتطلب سوى شحن الخيام والبطاطين والمواد الغذائية .
أما التدريب والسلاح والقتال لإستعادة الحقوق وردع المعتدين فهذا هو الإرهاب بعينة فى الشريعة الأمريكية الجديدة ، وفى الإسلام الجديد المتهود .
والأطراف الإسلامية "المعتدلة" التى كانت تتحرك أمامنا "لحل المشكلة سلميا" كانت مستوعبة تماما للقانون الدولى الجديد، والإسلام الأمريكى الجديد . وكنا نحن مجرد

مجموعة تنتمى إلى ماض سحيق، كان فيه شيئ عفا عليه الزمن "الأمريكى" . شيئ إسمه "الجهاد فى سبيل ا " ، هو من صلب شرائع ديننا الإسلامى"القديم ".

أمريكا منزعجة من الفاروق

* القوى الأمنية الأمريكية التى تمركزت فى بيشاور لمطاردة العرب، أزعجها كثيرا نشاط معسكر الفاروق. فأداروا ماكينة التجسس الباكستانية بطاقتها القصوى لمعرفة ماذا يجرى هناك. فكيف ينبعث هناك نشاط جهادى "أممى" فى وقت تدور فيه آلة الطغيان الأمريكى على أشدها "لتنظيف" المنطقة من آثار ما كان يسمى سابقا "الجهاد الأفغانى"؟؟. فمن سمح بهذه المهزلة الدائرة حاليا فى الفاروق ؟؟ وكيف تقوم نشاطات "جهادية" لم تسمح بها أمريكا ولم يطبل لها علماء البنتاجون؟؟ ..

إذن مايجرى فى الفاروق هو الإرهاب بعينه..وما دام الذين فى الفاروق ليسوا "بغال تحميل" فهم إذن إرهاب دولى يهدد أمن العالم أجمع.

جاءنى ذات يوم فى معسكر الفاروق أحد طلاب العلوم الدينية "طالبان"، كان زميلا لنا فى معارك خوست. قال لى أن سلطات الأمن فى بيشاور قد إعتقلت أحد زملائه وإحتجزوه لعدة أيام حققوا فيها معه ليلا ونهارا تحت الضغط والإرعاب النفسى والإنهاك البدنى والعصبى. وأن البكستانيين إستجوبوه تحت إشراف الأمريكيين، وأن معظم الأسئلة كانت تدور حول مايجرى فى معسكر الفاروق، وعنى شخصيا. وأضاف الصديق أن عددا آخر من الأفغان شباب خوست المجاهدين تعرضوا لتجارب مشابهة وأسئلة تدور حول نفس المحاور. وفى الأخير طالبنى الصديق بالإحتراس.

طمأنته شاكرا إهتمامه، رغم أننى لم أكن مطمئنا لكونى موضع إهتمام القوة الأعظم فى العالم، وهو مالا يحلم به مأمور المركز فى بلدنا ولا حتى شيخ الغفر.

فى عام ١٩٩٢ أظهرت السفارة المصرية فى إسلام آباد إهتماما بأمنى، فإهتم الباكستانيون بإهتمامهم ، وأخيرا ظهرأن السيد الحقيقى هو الآخر مهتم أمنيا بى، فهل أنا فى خطر؟؟ وهل العالم إنتهت مشاكلة وتفرغ لحل مشاكلى والحفاظ على سلامتى؟؟ لاشك عندى أن ذلك أكثر بكثير مما أستحق.

* كان من السهل على جواسيس باكستان رصد كل سلسلة المعسكرات الأفغانية والعربية جنوب خوست كونها قريبة من الحدود، وكان ذلك منطقيا بالنسبة لظروف الجهاد وقت الإحتلال السوفيتى.

الآن إنعكست الآية وتحولت باكستان من أرض صديقة إلى ركيزة لحملة أمريكية إنتهت بإحتلال أفغانستان مرة أخرى ولكن بقوات الأمريكان، الأصدقاء القدماء للجهاد الأفغانى. حتى من فوق الجبال على الطرف الباكستانى كان يمكن مشاهدة هذه المعسكرات وحتى قصفها بالهاونات إذا إستدعى الأمر. كان إختراق المعسكرات هو الحل الأمثل وهو ما قام به الكثير من أجهزة الأمن فى الحقبة السابقة من الجهاد الجماهيرى الذى غمر تلك المعسكرات بالجواسيس من كل صنف ولون.

لم يعد ذلك سهلا الآن (إلا للجواسيس الروس القادمون عبر حزب النهضة كما رأينا سابقا فلم يعد لدينا متطوعون من "الأمنيين العرب").
كنا نعلم أننا أصبحنا تحت رقابة أمنية باكستانية قريبة ترتكز على معسكر للجماعة الإسلامية الباكستانية الواقع فى المنتصف بين معسكرينا "الفاروق" و "جهادوال". تلك الجماعة مثل كل الجماعات الإسلامية الباكستانية، فى تحالف تاريخى وثيق مع المخابرات العسكرية الباكستانية.
مجموعة من المصورين كانوا يلتقطون لنا الصور أثناء مرورنا أمام معسكرهم، وكان يسمى (بدر ـ ٢) متظاهرين بأنهم فى جولة سياحية !!.
ودخلت عناصر من الأمن الباكستانى إلى "جهادوال" متصنعين التساؤل عن إسم وهمى لصديق لهم من العرب. شجعهم على ذلك الإقتحام، عدم توافر حراسات حتى لبوابات ذلك المعسكر .
* مرة أخرى زارنا صديق قديم من جماعة جهادية باكستانية، رغم تعليماتنا لحراسات "الفاروق" بعدم السماح لأى كان دخول المعسكر، وذلك تحسبا لزيارات جواسيس الدولة الجارة. وجدنا سيارة الزعيم الجهادى تقتحم علينا المعسكر ومعها دليل من زملائنا فى جهادوال يعرف صداقتنا القديمة، وصداقة بن لادن أيضا ، بذلك المجاهد الباكستانى الكبير . للوهلة الأولى شعرت أننا نتعرض لإقتحام إستخبارى، لأننى كنت فى إنتظار دائم لتلك الزيارات. نزل صديقنا المجاهد القديم ، وكان صديقا لى ولصاحبى الشهيد عبد الرحمن المصرى وكان وقتها مجاهدا مبتدئا مثلنا، ويلعب مثلنا فى ساحات "بارى"، ولم يكن قد أصبح زعيما بعد. تعانقنا كأصدقاء قدماء، ورأيت خلفة رجل خمسينى العمر ضخم الجثة ، فأدركت أنه صاحب فكرة الزيارة وأنه جاء متدرعا بأحد أصدقائنا القدماء . سألت صاحبى عنه فأجاب الإجابة التقليدية فى مثل تلك الظروف: إنه صديق قديم ومجاهد و... ضابط سابق فى الجيش.
عندى: تلك هى المواصفات الكاملة لرجال الإستخبارات الباكستانية "isi".
* فى مدينة خوست ركزت المخابرات الباكستانية نفسها فى تواجد دائم، تعرفنا على بعضه وجهلنا أكثره. كان لديهم مقاهى ومطاعم ومحلات تجارية وشاحنات لنقل البضائع . بإختصار كان وجودهم المخفى ونصف المخفى أقوى من أى تواجد حكومى فى خوست إلى أن جاء الإحتلال الأمريكى.
وفى الحقيقة فإن التحدى الأكبر الذى يواجه الشعب الأفغانى هو إعادة بناء الدولة الأفغانية وأجهزتها التى حطمتها الحرب ضد السوفييت والشيوعية. فلا أحد فى العالم يرغب فى ذلك، بل ويقاومه الجميع. وليس من قوة أفغانية يمكنها خوض غمار ذلك التحدى والفوز فيه ، سوى حركة طالبان بعد أن تنجز مهمتها التاريخية الحالية، والمتمثلة بدحر الغزو الأمريكى الأوروبى لبلادها.
*****

تطفيش المجاهدين الطاجيك من أفغأنستان

موقف حكومة "المجاهدين" فى كابول كان مراوغا وذكيا إستطاع فى النهاية إخماد الجهاد الطاجيكى وتمرير حل أمريكى فى طاجيكستان مشابه لذلك الحل الذى أتى بهم إلى السلطة فى كابول .
كان ذلك هو هدفهم منذ البداية ولكنهم لم يصارحوا به النهضة ، بل جاروهم فى الحديث عن الجهاد ، وقدموا لهم "مساعدات" كانت ضارة جدا . أهمها مساعدات قدمها سياف ثم مساعدات أهم وأخطر قدمها مسعود .

ذكرنا فى كتاب سابق مساعدات سياف التى أضرت ولم تنفع . فهو قدم لهم أسلحة ثقيلة توضع فى مواقع ثابته ـ على عكس ما تستدعيه المرحلة الأولى لحرب العصابات . فوضعوها فوق جبال شاهقة تلى نهر جيحون مباشرة . ولم يستطيعوا تموين الأطقم العاملة عليها فهبط أكثرهم إلى أسفل ـ على الجانب الأفغانى ـ وعند حلول الشتاء ونزول الثلوج ، هبط جميع الأفراد ، وصعدت القوات الحكومية وإستولت على الأسلحة بلا قتال .
كانت تلك الأسلحة عبارة عن هاونات ثقيلة ومدافع مضادة للطائرات وكلها بأعداد محدودة جدا .

مسعود من جهته ركز جهده فى البداية على تكوين جهاز أمنى تابع له داخل النهضة . ودرب أعداد من الشباب تدريبا عسكريا وربطهم بقيادته المباشرة . أى أنه درب لنفسه قوة عسكرية من شباب المهاجرين سواء المنتمين للنهضة أو غيرهم .
كان مسعود"معبودا للجماهير الطاجيكية " فكانوا يعاملونه كبطل أسطورى وينتظرون منه أن يحررهم كما حرر أفغانستان لأنهم من قومية طاجيكية واحدة .
ولكن مسعود الذى خيب آمال الأفغان سابقا ، فعل ذلك مع أتباع قوميته الطاجيكية بشكل أسرع وأكفأ . لقد إستغل سطوته الشعبية ونجمويته بأن تحول إلى قائد حقيقى لحزب النهضة .
وما أن وصل " البطل رضوان، الذى صنع له الروس مرتبة النجومية، حتى وضعه مسعود قائدا عسكريا لحزب النهضة. وبمسدسه الشهير إستطاع رضوان أن يكون سيفا قاطعا فى يد مسعود يقطف به رقاب المخلصين والجادين فى حزب النهضة، خاصة العلماء والمجاهدين منهم .
لقد ساعدنا مسعود كما رأينا فى نقل أسلحة وذخائر إلى النهضة فى طالقان . وإنتقل بالفعل جزء من هذه المواد إلى داخل طاجيكستان ولكن ما أن بدأ الحديث عن "مفاوضات تسوية سلمية" حتى وضع مسعود يده على المواد المتبقية وصادرها. "وهكذا تحققت نبؤة جماعة حكتيار ، فهم أعرف ببعضهم البعض" .

وحتى تصبح التسوية السياسية مطلبا جماهيريا، تم "تنظيم" ضغط قاتل "لتطفيش" المهاجرين الطاجيك من أفغانستان .

* الصيف فى سهول قندز التى تكدس فيها المهاجرون كان قائظا ، والملاريا فيها منتشرة . والخيام تتحول صيفا إلى مواقد لطهى البشر الذين يعيشون داخلها. وحتى الأكواخ الطينية التى ظهرت لم تكن أسعد حالا .

أما كرم الضيافة الذى صادفوه من إخوانهم الطاجيك الأفغان فكان لا يقل سوءا عن كرم الضيافة الروسى الذى دفعهم إلى الهجرة من طاجيكستان. كان ذلك ضرورى حتى يصلوا إلى النتيجة المطلوبة وهى أن عودتهم إلى بلادهم أفضل من الهجرة فى بلاد "الجهاد الأفغانى"!!

والحوادث فى هذا الباب لا تكاد تحصى. إذ أن هؤلاء المنكوبين فى مدن الخيام كانوا عرضه لتحرشات "إخوانهم" المسلمين. وزيجات كثيرة من فتيات مهاجرات تمت تحت تهديد السلاح . وكثيرة كانت حوادث القتل بهدف السرقة . ومن سؤ حظ المهاجرين إنتشار عادة تركيب الأسنان الذهبية، فبلادهم "لسؤ الحظ" غنية بالذهب.أدى ذلك إلى حوادث سطو على الأسنان بعد تحويل أصحابها إلى جثث هامدة . ومن الضحايا كان طيار حربى فر من الخدمة وعبر إلى أفغانستان مع المهاجرين ، فسقطت به أسنانه الذهبية فى هاوية الموت.

* كان قادة حزب النهضة والمهاجرين الطاجيك ، يكنون غاية البغض لمسعود ورجاله بعد أن عرفوهم على حقيقتهم. ولكن كالعادة فى غالب الأحوال ، فإن صاحب الحق إما أخرس وإما جبان، وقد جمع إخواننا بين الميزتين .

الأعجب كان إتهام مسعود لحركة طالبان بأنها حركة بشتونية تعادى الطاجيك وتسعى للسيطرة عليهم. كان ذلك أبعد ما يكون عن الحق ولكن آلات الدعاية الدولية والإقليمية ظلت تردد الأكاذيب حتى أرغمت من لا يعرف الحقيقة على تصديق ما يسمعه .

لقد كان الطالبان، ماعدا قلة نادرة، مخلصين لشعاراتهم الإسلامية وإن كان بعضهم تأثر بتلك الدعايات وبدأ يتعامل مع مشكلتهم مع مسعود وتحالف الشمال على أنها مشكلة قومية .

ولقد رأينا فى كابول وقت قتال طالبان ضد مسعود وتحالف الشمال أن أحد أفراد طالبان أوشك على قتل متطوع باكستانى كان يقاتل إلى جانبه لأنه إقترح أخذ النساء الطاجيكيات النازحيات من الحرب سبايا . فشهر في وجهه السلاح وتهيأ لإطلاق النار وهو يقول له : كيف تتكلم بهذا الكلام عن إمراة أفغانية؟؟ . ولولا تدخل الموجودين لقتله بالفعل . كثيرا ما قام مسعود ، وكذلك حكتيار وسياف وحلفاؤهم العرب بقصف الأحياء السكنية للشيعة فى ضواحى كابول بالمدفعية والصواريخ .

قال حكمتيار للعرب المقاتلين إلى جانبه، عن مناطق الشيعة فى كابول أنه "سيحولها إلى مزارع للقمح"، وقد كان يدكها بالصواريخ الثقيلة بشكل مستمر.

أما مسعود فكان أول من شرع ونفذ قانون سبى نساء الشيعة فى تلك المناطق.
ومن أعاجيب السياسة التى يمكن أن تصيب الشخص العادى بالسكته الدماغية هو أن يشمل التحالف ضد طالبان كل من مسعود وسياف وحكمتيار وحزب وحدت الشيعى وإيران، والجميع ضد طالبان الذين وصموهم بالتعصب الدينى والعنصرى !!.
فويل لمن يتمسك بدينه فى مواجهة المتحكم الأمريكى الأعظم. فالسياسة أصبح محركها الأساسى ليس العنصر وليس الدين بل الدولار.. والدولار فقط .
*****

من أفغانستان إلى الشيشان

معسكر الفاروق ظل يدرب مجموعات صغيرة من الطاجيك يرسلها زعماء النهضة ، ولكن مشروع القوة المركزية كان قد إلغى تماما،وكذلك نقل الأسلحة.
ظل للعرب تفريعان للعمل فى طاجيكستان. الأهم والأكبر كان يقوده خطاب الذى كان يعمل فى خلف نهر جيحون كما ذكرنا .
وكان يتعرض أحيانا لضربات جوية روسية، تطال كذلك القرى القريبة منه . ومن مشاكله الأخرى كان نهر جيحون الذى كان يثور بعنف فى فصل الربيع وبداية الصيف نتيجة ذوبان الثلوج وكان عبوره مستحيلا فى ذلك الوقت . وفقد عديدون أرواحهم فى محاولات كهذه . وكان لدى "خطاب" أسطولا من القوارب السريعة .
وكان مرتبط بقاعدة إسناد قوية ممتدة فى السعودية ومنطقة الخليج .
مشكلته الآخرى كان محدودية الفترة الزمنية المتاحة له فى العمل . الذى تحول إلى نشاط نمطى لا فائدة فيه . إذ يضيع الوقت فى تسلق جبال شاهقة والإستيلاء على مواضع حراسات عسكرية فوقها . ثم تركها عند حلول الشتاء ، كى يعيد الجيش إحتلالها .. ثم يعاد تكرار القصة فى العام المقبل وهكذا .
قبل مغادرتى طالقان تركت لخطاب رسالة شفوية مع صاحبنا أبوعلى، أنصحه فيها بأن يترك هذا الأسلوب الذى سيهدر الطاقات والوقت، وأن عليه دخول طاجيكستان والعمل من هناك .
كنت قد تعرفت على خطاب لأول مرة فى زيارتى تلك إلى طالقان . وكنت قد سمعت عنه وعن مجموعته التى كانت تعمل فى جلال آباد .
أظن أن رضوان كان سببا فى دفع خطاب ومجموعته إلى الرحيل نحو الشيشان.
حيث أصبح "خطاب" هناك الشخصية العربية الآولى وقائدا لكل العربفى الشيشان، إلى أن تمكن الروس من إغتياله بالسم بعد عدة سنوات .
المجاهدون الشيشان بقتالهم العنيف والناجح ضد الروس وعلاقات خطاب الواسعة ، جذبت العديد من الطاجيك والأفغان والأوزبك إلى الذهاب والمشاركة القتالية معه فى

الشيشان. ومن حسن حظ الشيشان أنه لم يظهر لديهم حزب نهضة ولا مسعود ولا رضوان ولا إخوان مسلمون ..
ولكن مالبث "خطاب" أن تقمص شخصية الزعيم العظيم ، وإتخذ قرارا بغزو جمهورية داغستان المجاورة والتى ظهرت فيها حركة سلفية جهادية .
فأتاح ذلك الغزو للروس غطاء مناسبا لشن حملتهم الثانية على الشيشان .. فكانت القاضية. فسقطت الشيشان مرة أخرى تحت الإحتلال الروسى، المباشر وفقد المجاهدون مجموعات كبيرة من خيرة كوادرهم، بل إضطروا بشكل عام إلى ترك الشيشان والعمل من خلف حدود دول مجاورة .
كانت تجربة خطاب فى الشيشان مشابهة كثيرا ـ بل متطابقة ـ وتميزت بالسبق على تجربة أسامة بن لادن فى أفغانستان **(راجع كتاب صليب فى سماء قندهار)** .

الباشـــا على نهر جيحون

الرافد الآخر للعمل العربى فى طاجيكستان كان المتطوعون الأفراد الذين دخلوا إلى طاجيكستان وإنضموا إلى مجموعات طاجيكية مجاهدة .
بعضهم أدى أدوارا بطولية مذهلة أدخلت الرعب الحقيقى فى نفوس الجنود السوفييت. ولهم عملية أسطورية أقتحموا فيها معسكرا للقوات الخاصة الروسية وسيطروا عليه بعد قتل وأسر من فيه ـ وقد أذاع التلفزيون الروسى لقطات للناجين من العملية وللمعسكر بعد استرداده . وقد سجلت بنفسى أقوال بعض المشاركين فى العملية وتفاصيل دقيقة لما حدث , ولكن فقدت كل تلك الاوراق بكل أسف .
عرض التلفزيون الروسى أقوال الجنود الناجين من القوات الخاصة وكانوا يبكون وفى حالة إنهيار كامل ، رغم أجسامهم الضخمة ورؤوسهم الحليقة .
الذى سمع عن تلك العملية لم يكن ليندهش لما قام به صديقنا "الباشا" ـ أبودجانه الشرقاوى الملاكم.
عبر الباشا نهر جيحون مع مجموعه من الشباب الطاجيك ـ وكان ذلك يتم بالإتفاق مع حراس الحدود من طاجيك وروس ودفع أموال لهم على حسب ما تضم القافلة من أفراد ومواد ، قد تكون أسلحة أو أى " شيئ " آخر .
القافلة كانت تسير بعد ذلك عشرون أو ثلاثون كيلومترا فى طريق محصور بين النهر والجبال ثم تنحرف شمالا لتدخل فى عمق البلاد ومناطقها الزراعية ,
فى أثناء ذلك الطريق داهمتهم داورية روسية يرأسها ضابط شاب يحمل رشاشا قصيرا ـ يحمله الضابط وأفراد القوات الخاصة ـ ومع الداورية مصفحة وعدة سيارات جيب بها جنود ومسلحون .

كان ذلك كافيا لإخافة أفراد القافلة ، خاصة ذلك العربى الذى يمثل الإمساك به ضربة سياسية كبيرة لصالح الروس والحكومة الطاجيكية. ودليلا لا يضحد على أنها عرضة لهجمات " الإرهاب الدولى " .

لكن الباشا "أبودجانة " كان له رأى آخر. لقد أعجبه رشاش الضابط فطلبه منه(!!).

أصيب الضابط بالدهشة ، ولكن الباشا لم يتوقف وبالفارسية التى يمتلك بعضها ، وبمساعدة شاب طاجيكى. أفهمه بأنه مجاهد عربى!! وأنه سيأتى بعد قليل كى يقتله ويأخذ منه ذلك الرشاش ، فمن الأفضل له أن يعطيه له الآن ويوفر على نفسه المشاكل و"البهدلة !!" .

أغرب من هذا كله موقف الضابط الروسى الذى أخذ يعتذر ويتعلل بأنه الرشاش عهده حكومية (!!) وأنه لا يمكنه التنازل عنه . ثم يرجوه أن يتركه وشأنه ثم يطلب وساطه الحاضرين من الطاجيك (!!) . وبصعوبه، وتحت ضغط زملاء الرحلة من الطاجيك من أولاد الحلال، وبدوافع إنسانية إرهابية ، وافق الباشا على العفو عن الضابط ، مهددا إياه أنه قادم إلى هذا المكان مرة أخرى ، فإذا وجده هنا فسيخرب بيته، وبيت الذين خلفوه، ويقتله ويأخذ سلاحه .

تأكد الباشا أن رسالته وصلت إلى الضابط الروسى ، فمضى مستريح البال قرير العين . وخاض الكثير من المعارك الناجحة ولكن للأسف ليس بهذا الأسلوب تحديدا.

* لم تكن الصورة كلها بهذا الأشراق. لأن أفراد قلائل من أصحاب العقيدة الصحيحة جاءوا وعلى أكتافهم السلاح كى ينشروها فى أوساط المشركين الطاجيك. وكرروا نفس القصة الحزينة التى يحملونها معهم فى كل مكان ، قصة فرقة دينية مسلحة تسفك الدماء وتنشر الفتنة وإنعدام الثقة بين المسلمين.

ويدير المشهد فى كل مرة ومن وراء حجاب، ضابط إستخبارات "مؤمن" من دولة صليبية "كافرة" سخرة ا لخدمة دينه الحنيف وعقيدته السمحة !! .

الأشياء السيئة تؤثر وتنتشر بسرعة ، لذا فإن الآثار السلبية لهؤلاء أعطت مردودا سلبيا على كل التواجد العربى فى طاجيكستان .

{{ لهذا فمن المستبعد تماما أن تتمكن السلفية الجهادية من أن تكون حلا إسلاميا لما يواجه الأمة من تحديات . ومهما كانت البطولات فى ميدان المعركة، وهى بطولات كبيرة ومشهودة جاءت فى زمن أصبح الجبن فيه شعارا وفخرا لأكثر المسلمين، ولكن الفجوة "العقائدية" بين السلفية وباقى المذاهب الإسلامية تطغى حتى على التناقض بين المسلمين وأعدائهم من الغزاة والمسيطرين. وتسعى السلفية دوما ، بشكل عاجل غيرمؤجل إلى ردم الهوة العقائدية بينها وبين المذاهب الإسلامية الأخرى بالدم طالما أن السلاح "الجهادى" متوافرا.

إلا أن يتحرك المسلمون للقيام بفريضتهم الجهادية التى تخلوا عنها. وإنهمكت عقولهم المفكرة فى إعادة تكييف الإسلام وفقا لمتطلبات العصر الأمريكى المظلم ، وللحصول على فتات ذليل من الحياة فى ظل أنظمة تحكمهم لصالح القوة الأمريكية والإسرائيلية. إن المطلوب هو تحرك جهادى إسلامى شامل وجديد . وهذا لا يمكن القيام به فى ظل فقه النقل عن الكتب القديمة لأحكام جاءت فى ظروف لا تمت للحاضر بأى صلة.

المشكلة هي فى عدم إمكان المسلمين الحصول على العالم المجتهد المجاهد ، العالم بأمورالدين بقدرعلمه بأمور السياسة . العالم الذى إنتصر على نفسه وشهواتها قبل أن يجاهد أعدائه .
إن ظهور مثل ذلك العالم يبدو شبه مستحيل فى الظروف الحالية، حيث تحولت المعاهد الدينية والمساجد إلى مواقع أمن لدولة الإستخبارات. وخريجوها أصبحوا بلا محتوى علمى معقول .
وهناك تغيير منتظم للمفاهيم الإسلامية بل ضخ لدين جديد تحت ذريعة مكافحة الإرهاب ـ تشارك فى ذلك كل أجهزة الإعلام، خاصة الفضائيات ـ إضافة لكل مؤسسات الدولة وعلى رأسها الأمن ومؤسسات التعذيب ، ومراكز البحث العلمي والدراسات .. الخ .
إن التحدى أخطر وأعمق مما يتصور كثيرون . وأكثر الأساليب الماضيه التى إستخدمها المسلمون للمواجهة لم تعد مجدية بل لم تعد متاحة .
وكثير من الهيئات والمنظمات والمؤسسات الإسلامية غيرت توجهاتها بما يتناسب مع المطالب الأمريكية الجديدة . ولكنها ظلت تتظاهر بأنها على نفس خطها الإسلامى القديم "والأصيل " .
وهذا أيضا من التحديات المخادعة التى تواجه التحرك الإسلامى الجهادى والمقاوم فى الوقت الحالى وفى المستقبل القريب . لابد من إدراك أنه لا يمكن حدوث إنبعاث جهادى حقيقى وجذرى بدون أن يكون مصحوبا بإنبعاث دينى تجديدى مجتهد، بالشكل الحقيقى للإجتهاد. لايعنى ذلك أن نوقف الجهاد حتى تتوافر شروطه المكتملة والمثالية،فذلك يمكن الأعداء من رقاب المسلمين. ولكن إستمرا الجهاد بالقدرات المتوفرة علميا وماديا، مع تحسين الأداء وتطويرة تدريجيا ، وصولا إل الأداء الأمثل بالشرائط الأفضل}}.
****

رحلة المهالك نحو طالقان

من المفيد أن نمر سريعا على بعض معالم رحلتنا إلى ولاية "تاخار" الشمالية لمعرفة الأوضاع السائدة يومها .
كنا نتعاون نحن وحزب النهضة فى مرور قافلة المتدربين . كل جانب يحصل على التأمين اللازم للقافلة من المناطق التى له فيها أصدقاء أو معارف .
كان علينا تأمين العبور من مناطق حكمتيار فى "تشارآسياب" على حافة كابول. وبعدها ندخل فى مناطق مسعود ، وهنا يأتى دور النهضة لتسهيل المرور .
ولكن بين المنطقتين ، هناك منطقة رمادية يسيطر عليها قائد يتبع حركة إنقلاب إسلامى التابعة لمولوى محمد نبى محمدى، إسمه مولوى عبد اللطيف.
إكتسب الرجل سمعه سيئة جدا بين أصدقائنا من عرب حكمتيار. وحذرونا من العبور من منطقته لأنه (يكره العرب) وقالوا أنه إعتقل عددا منهم أثناء عبورهم، وعذبهم ثم سلمهم إلى حكومة باكستان، كى تسلمهم بدورها إلى جهات أمنية آخرى .
بحثنا حولنا فى خوست عمن يعرف الرجل ، فوجدنا أن حاجى إبراهيم شقيق حقانى يعرف الرجل جيدا ، وتربطه به صداقه قوية ، بل يعتبره رجلا جيدا صالحا .
كان عجيبا ذلك التفاوت فى الحكم على الرجال . أخذنا رسالة من حاجى إبراهيم تشفع لنا عند مولوى عبد اللطيف كى يسمح لنا بالمرور لأننا من أصدقاء مولوى حقانى . عبرنا مناطق حكمتيار ، ثم مناطق مسعود ، ثم مولوى عبد اللطيف . كانت الخطوط القتالية متداخلة. واشتكى لنا الرجل فى جلسة ترحيب ودية أنه محصور فى

مكانه هذا ، لا يستطيع أن يتقدم ولا يمكنه أن يتأخر. فهناك مسعود أمامه وحكمتيار من خلفه وهو لا يريد أن ينضم لأى منهما ولا يمكنه الإنتصار عليهما .
لقد أكرمنا الرجل جهد طاقته وكان ودودا جدا ، وحديثه معنا حميما كأننا أصدقاء من زمن طويل وألح علينا أن نمر عليه فى عودتنا .
وقد تعرف على العرب المتواجدين ، وكنا حوالى أربعة أفراد ، أنا وعبد الهادى وأبوعلى وأبوأمامه (وكان أبوحسين مندوبا دائما لنا فى طالقان). وأثناء جلسته معنا تطرق الحديث إلى الصوفيه . ولما شعر أننا لسنا أعداء لها إنفرجت أساريره وأطلعنا على طريقته وعلمها لنا .
وكان الأمر سهلا ، مجرد مجموعة أدعية قصيرة يكررها الفرد عددا معلوما من المرات . وضحك ملء قلبه قائلا : لقد أصبحتم صوفيين من طريقتنا .
طلب منا مولوى عبد اللطيف برجاء أن نبقى عنده الليلة، لأن الطريق الذى سنعبره فيه بعض "مشاكل" . وكنا نسمع أصوات إنفجارات وإطلاق نار .

ذهبنا إلى مبنى حكومى ضخم ودخلنا صالة واسعة جدا فى طابقه الأول، كان بها الكثير من الأسرة الحديدية العسكرية . قابلنا هناك شابا ملتحيا . قدم لنا نفسه على أنه ضابط سابق فى الجيش، وأنه من قبيلة زدران. قال أنه وقع فى أسر القوات الشيوعية فى بداية الحرب ، فسجنوه فى سجن "بولى شرخى" لمدة ست سنوات ، ثم أفرجوا عنه فى عملية تبادل للأسرى تمت بين الروس وحقانى ، الذى أسر ضباطا شيوعيين فى معركة جاور١٩٨٥.
سألته إن كان يعرف شيئا عن تلك المعركة . فقال أنه كان فى السجن وقتها ولكن وصلتهم إلى داخل السجن مقالات عنها نشرتها جريدة الاتحاد. فكان السجناء يقرأون جماعيا تلك المقالات ويتفحصون الصور التى بها، وقد إرتفعت معنوياتهم كثيرا وأيقنوا أن خروجهم من السجن بات قريبا.
" لم أخبره أننى كاتب تلك المقالات لأن هيأتى وقتها لاتوحى بأننى أعرف القراءة والكتابة ".
ولكننى إنتبهت إلى أن الجدوى وعدم الجدوى مسألة نسبية. فما هو غيرمجدى أو مفيد فى الأمارات وأبو ظبى ، قد يكون مفيدا ومجديا فى سجن بولى شرخى فى كابول.
* فى ضحى اليوم التالى وصلت الأخبار بأن الطريق آمن. فتحرك بنا الباص بين خطوط المتصارعين: دوستم،حكمت يار، مسعود. ونحن فى صمت رهيب، لانتكلم ولاننظر من نوافذ الباص المغلقة، خشية أن يتأذى أحد المسلحين من مناظرنا فيطلق علينا النار بغير حساب. فقتل ركاب أحد الباصات أو إحراق أحد الباصات بمن فيه، مسألة غاية البساطة وربما مطلوبا فى تلك الظروف. فإذا كان الركاب أعداء فقتلهم شئ جيد وإن كانوا أصدقا فذلك حادث مؤسف نرجوا ألا يتكرر، أما إذا تكرر فذلك قضاء وقدر لامهرب منه ولا إعتراض عليه.

لم نشعر بالخطر الحقيقى أثناء الرحلة إلا مرتان.الأولى قبل أن ننتهى من عبور ممر سالانج بقليل ، والآخرى بعد أن عبرناه بقليل .
مدخل الطريق فى قرية جبل السراج منطقة هادئة وجميلة تستقبل المسافرين بمجموعة من الفنادق التقليدية النظيفة فى بيئة جبلية نقية .
تناولنا طعام الغذاء فى أحد تلك الفنادق ، ثم تركناها وأنا أود البقاء وقتا أطول متعجبا من كل هذا الجمال الوديع كيف شاهد أنهار الدماء تسفك على مر الزمان .
* قبل نهاية الممر أوقفنا حاجز تفتيش لرجال مسعود. كانوا مجموعة من الذئاب الوحشية، نظراتهم مقتحمة وعدوانية ، وتحركاتهم حادة وعنيفة يبحثون ويسألون عن شيئ واحد : أين العرب. شعرت أن أحدهم قد أبلغ عن وجودنا، وكنا قد طلبنا من مكتب النهضة فى كابول وجميع من معنا من متدربين فى قافلتنا أن يتكتموا أمر وجودنا معهم حتى عن حليفهم مسعود. وكان عداء مسعود وجماعته للعرب قد بلغ ذروته بعد أن تسبب وجودهم مع غريمة حكمتيار وقتالهم إلى جانبه، تسبب فى كوارث كبيرة له. وفى الواقع فإن حكمتيار قد فقد معظم قواته الأفغانية وأصبح يعتمد بشكل أساسى على العرب الذين معه وهم جماعة أبومعاذ الخوستى. ثم كتيبة اليرموك لأبو روضة السورى. (وبعد إستيلاء حركة طالبان على كابول عانى مسعود الأمرين من المتطوعين العرب فى صفوف طالبان ، الذين حفظوا كابول من السقوط المؤكد بين يديه عدة مرات. ثم كانت نهاية مسعود على يد إثنين من العرب فى عملية رتبتها القاعدة عام ٢٠٠١) .
نجونا بإعجوبة من ذلك الكمين. وقد أبدع الشباب الطاجيك فى التغطية علينا ، وفى الواقع كان لهم هيبة عجيبة فى نفوس النقاط الأمنية المتنوعة طول الطريق .

ممر سالنج منطقة يصعب السيطرة عليها ـ ويستلزم ذلك جيشا كاملا يعمل على مدار الساعة . لابد أن تأمين القوافل السوفيتية على ذلك الطريق إستدعى مجهودا خارقا ، إما عسكريا ، وإما سياسيا وماليا ، والأغلب أنهم استعملوا الأسلوب الأخير مع مسعود ، وكان ذلك واحداً من أسرار الحرب السوفيتية على أفغانستان التى لن ترى النور. نحن أمام عشرات الكيلومترات الملتوية بين جبال شاهقة كل متر منها يصلح لنصب مئة كمين .. فكيف عبر السوفييت هنا لأكثر من عشر سنوات ؟؟.
لقد كان ذلك الممر واقعا على طريق إمدادهم الرئيسى القادم من جسر حيرتان على نهر جيحون "آموداريا" وصولا إلى كابول .. وكان يستخدم طول العام ليلا ونهارا .. فكيف تم ذلك ؟؟. الإستنتاج هنا إجباري وليس له إلا إجابة واحدة : إنها صفقة قذرة لا أكثر !!. كنت أفكر فى ذلك طول الطريق من جبل السراج وحتى نهاية الممر عند قرية "دوشى" . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها الممر وأعبر منه .
* عند المدخل الآخر للممر الواقع فى محافظة "باغلان"، فى قرية دوشى عاد الباص أدراجه إلى كابول. قضينا عدة ساعات حتى دبرنا سيارة تكمل بنا الرحلة . فوجدنا عدة شاحنات تنقل بضائع وركاب ، فتسلقناها مع عشرات آخرين من الأفغان .

وسارت الشاحنات بكل همة وإقتدار فى تضاريس "قمرية" ضحضحت عظامنا حتى توقف السائق قرب منتصف الليل فى منطقة "سافانا" مجهولة، وفنادق طريق مثيرة للتوجس مصنوعة من الطين والقش .

* فى الصباح ركبنا شاحنات آخرى ، ثم باصاً آخر وهناك صادفنا كمينا محكما ، مكون من مجموعة مسلحة من قومية "الهازارة". أنزلونا جميعا من الباص ثم أمرونا بالإصطفاف صفا واحدا . وبدأوا فى التحقيق معنا شخصا شخصاً فأدركت أنهم يبحثون عن العرب تحديدا . ومن طريقة إصطفافنا على جانب الطريق وخلفنا منطقة عشبية مفتوحة أدركت أنهم قد يطلقون النار فورا على من يشاؤون .

بدأ قائد الكمين ، وكان فى حدود الخمسين من العمر ، يتحدث بنفسه مع ركاب الباص فردا فردا ناظرا مباشرة فى عيونهم. كان معنا ركاب آخرون، فإستغرق ذلك وقتا طويلا حتى وصل إلى متدربينا ، وبعد أن إستجوب مجموعة منهم أفتعلوا ثورة إحتجاج ، ساندهم فيها الأفغان الآخرون ، وكاد الزمام أن يفلت ولما كان زعيم الكمين لم يجد شيئا يثير الريبة فقد سمح لنا بالمغادرة ، فضج الركاب بالتكبير ، وتضاحك أفراد الكمين وكذلك الركاب ، أما أنا فقد جففت "عرق الفرحة" من على وجهى"!!" وكنت واقفا قرب نهاية الطابور كى أستمتع بأطول فرصة ممكنة من الحياة.

إستمرت الرحلة بشكل طبيعى لا يخلو من المرح والإستمتاع بمناظر الطبيعة البكر في الشمال الأفغانى .

وصلنا أخيرا مدينة قندز فاسترحنا بها قليلا ثم واصلنا سيرنا إلى مدينة طالقان القريبة فكان لقاؤنا مع رضوان على النحو الذى أوردناه سابقا .

كان قد خصص لنا بيتا ملاصقا لبيته يفصل بينهما سور بإرتفاع طابق واحد . ولما كان الحر شديدا فكنا نجلس فى ساحة الطابق الأول وكان الشباب من حراس رضوان وشقيقة جمعه يجلسون على سطح منزله فنكون فى مستوى واحد تقريبا .

عـيون جارنـا جمعـ ـه

وإعرابا عن الترحيب والإحترام ، وضعوا مدفعا عديم الإرتداد عيار٨٢مليمتر فى مواجهتنا مباشرة . إفترضت أنها مصادفة بالطبع . ولكنهم بشكل دائم تقريبا يضعون صفا من الأحذية العسكرية بحيث يواجهوننا بنعالها، إفترضت أيضا أنهم نسوها كذلك. وفى الليل يضعون على سطح البيت جهاز تلفزيون بغرض متابعة مباريات عالمية فى كرة القدم ـ أظنه كان كأس العالم أو شيئ من هذا القبيل ـ فكانوا يحدثون ضوضاء شبه مستمرة معظم الليل . والشيئ الذى أوشك أن يفقد اخواننا صوابهم هو الأغانى والموسيقى التى تنبعث من التلفاز، فأرغموا جماعة رضوان على تخفيض الصوت ، وفشلت أنا فى إقناع جماعتنا أن يتجاهلوا هذا التنغيص الموسيقى حتى لا ننساق إلى إستفزازات تخفى أهدافا ضارة جدا بالجميع ، خاصة مع وجود ذلك المدفع

فى وجوهنا إلى جانب الأحذية العسكرية الموجهة إلينا والتى لايخفى مغزاها على ذى لب من أمثالنا.
لتخفيف الإحتقان قام جمعه شقيق رضوان بزيارتنا فى مقرنا عدة مرات . وكان ضخم الجثة فى حجم شقيقه مرتين أو ثلاث تقريبا .
حاولت توثيق علاقتى مع جمعه إذ لمست فيه لطفا لم ألمسه فى شقيقه. جاءنا جمعة يوما وإحدى عينه وارمة منتفخة إثر إصابته بمرض ما . وكنت أحتفظ معى بصيدلية خاصة من أدوية "الهوموباتك " المنتشر فى باكستان ، وكنت أثق فى هذا العلاج كثيرا طبقا لتجربة طويلة على نفسى وأسرتى أثناء إقامتى هناك .
وكان معى دواء لهذه الحالة كنت جربته على نفسى بنجاح ، فأعطيته منه وزودته بالارشادات اللازمة .
إنصرف جمعه شاكرا . وكان صديقى أبوحسين المصرى جالسا إلى جانبى وقتها ، وما أن إنصرف جمعه حتى إنفجر صديقى ضاحكا حتى إستلقى على الأرض.
سألته عن السبب ، فقال لى أنه يخشى أن تتورم أيضا العين السليمة لجمعه أو أن يفقد نظره. ووقتها سيضربوننا بمدفع ٨٢ مليمتر الموجود على السطح .
شعرت بغصة فى حلقى وبلعت ريقى بصعوبة. ولكنى تماسكت وأظهرت ثقه بدوائى وقدراتى العلاجية وأخذت أبدد شكوك صاحبى ذو الطبيعة المتشائمة مع أننى بدأت أتوجس شرا .
كان الغد يوم جمعه ، ومن المتفق عليه أن جارنا جمعه سيزورنا فى العاشرة صباحاً لكنه لم يحضر .
أبوحسين جاء يذكرنى بمخاوفه وهو يضحك. فقلت له أننى سأعاقبه على أفكاره السلبيه تلك بأن أرسله للإطمئنان على جمعه وسبب تأخيرة .
فقال أنه خائف فأصررت عليه فذهب . وعاد بعد قليل ممتقع اللون. لقد حدث ماكان يخشاه وتورمت عينا جمعة ولم يعد قادرا على مغادرة الفراش أو رؤية من حوله ، فأسقط فى يدى .
وطلبت من صديقى ـ على سبيل الإحتياط ـ أن يسأل فى مطار طلقان عن أقرب طائرة متوجهة إلى كابول وعدد المقاعد الممكن الإستفادة منها لمجموعتنا .
ضحك أبوحسين وبقيت معه على سطح المنزل حتى نراقب أى تحركات مشبوهة حول المدفع عديم الإرتداد الموجود على سطح بيت جمعه .
بعد ثلاثة أيام شفى جمعة وأصبحت عيناه سليمتان فحمدت ا أن إستجاب دعائى له بظهر الغيب . وعاتبت أبوحسين على وساوسه التى لا مبرر لها .
أصيب عدد منا بالملاريا وكان معى أقراص لعلاجها بدواء " الهوموباتك " الذى كان يخفف منها قليلا ولكنه لم يكن يعالجها .
قبل قرارنا بالسفر أصبت بالملاريا ، فذهبت إلى قندز حسب نصيحة أحد الاطباء لأخذ بعض الحقن، فعلت ذلك ولكن بلا فائدة . سأل أبوحسين عن الطائرات المتوجهة

إلى كابول ، وكان معظمها طائرات هيلوكبتر عسكرية فعلم أن وصول طائرة متوقع بعد أسبوع ولكن العثور على مقعد أو مكان للجلوس على الأرض ، أمر غير مضمون لأن أكابر القوم فى الحكومة هم المعنيون بتلك الطائرات .

* أبوحسين كمندوب سامى لنا فى الشمال عند حزب النهضة إستخدم تلك الطائرات عدة مرات بواساطات من زعيم النهضة. وحكى لنا عن أحوال السفر عليها. قال أنه فى أحدى رحلاته تلك تكدست الطائرة بالناس وبراميل البنزين وبعض الخراف (!!) . وأن الأحوال الجوية إضطربت أثناء الرحلة وأوشكت الطائرة على السقوط .

فى تلك الأيام أيضا كانت هناك حرباً جوية بين مسعود وغريمه دوستم . ولما كان الطيارون يحترم بعضهم بعضا بعد زمالة طويلة وقت الحكم الشيوعى، فكانوا لا يهاجمون بعضهم بعضا فى الجو ، بل يضربون الطائرات وهى على الأرض فقط .

{{مراعاة خاطر الزمالة بين الشيوعيين إنتقل أيضا ـ لحسن الحظ ـ إلى الجانب الإسلامى المتقاتل على الأرض ، فانتشر تقليد الهروب المتبادل فى سياسة يمكن وصفها بسياسة "شيلنى وأشيلك " أو "إهرب لى وأنا أهرب لك".

وملخصها هو البيع المتبادل للمواقع . فاذا إراد طرف ما الحصول على موقع معين فعليه أن يدفع مالا للطرف الآخر الذى يدافع عن الموقع كى يفر أمام الهجوم القادم.

ويتهم تبادل الأدوار إذا أراد الطرف الثانى إسترداد الموقع.. وهكذا.

والحزب أو الزعيم هو الذى يمول العمليات ، فعندما يريد الإستيلاء على موقع ما فإنه يعطى المقاولة لكومندان معين مقابل مبلغ متفق عليه ـ ويقوم هذا بدوره بشراء الموقع بجزء من المبلغ المدفوع والإحتفاظ بالباقى لنفسه ولرجاله.وهكذا يستفيد الجميع ويربح الجميع "ومعركة تفوت ولا حد يموت".

وللأسف فإن ذلك الشعار لم يكن موضع إحترام دائم وعندها قتل كثيرون}}.

ومصيبة إخواننا العرب لدى حكمتيار أنهم لم يدركوا أن ذلك القانون موجود ومنتشر لدرجة لا بأس بها. وعدم إدراكهم هذا أربك اللعبة وجعلها دموية بأكثر مما يرغب فيه باقى الأطراف .

قررت أن نسافر على طريق البر بدلا من إنتظار طائرات قد لا تأتى أبدا ، وقد لا تصل إلى كابول أبدا . ورغم المرض توكلت على ا وسافرت برا . رافقنى عبد الهادى وشاب عربى من جماعة خطاب ، وكان يمنيا ، وكان شابا آخر يعتزم المجئ معنا لكنه عدل عن رأيه. باقى الزملاء بقوا فى طالقان على أمل العثور يوما على طائرة إلى كابول وكانوا قد سأموا السفر برا . وخشيت من رفقة الأخ اليمنى لنا ، كونه أكثر سمرة من الجميع وهذا قد يثير ريبة كلاب التفتيش على طول الطريق .

معظم الطريق كنت فى حالة نصف إغماء. فى البداية ركبنا شاحنة ضخمة ، حجزوا لى مكان للنوم مخصص للسائق خلف كابينة القيادة . كان السير بطيئا وشاقا والملاريا تخرجنى من غيبوبة إلى غيبوبة أخرى وأنا لا أدرى فى أى عالم أتحرك .
رافقنا فى الرحلة عدد من المتدربين الذين قدموا معنا ، وقد فروا من سجون "رضوان" سفاح حزب النهضة .
كما رافقنا أيضا عدد من الشباب الجدد أرادوا التدريب فى معسكر الفاروق . ثم شباب طاجيك فى طريقهم إلى مكاتب النهضة فى كابول . كان ذلك السفر الجماعى فى مصلحة أمننا على إعتبار أننا أيضا من الطاجيك .
سارت الأمور مع نقاط التفتيش كما ينبغى ماعدا النقطة الأخيرة فى كابول وكانت تابعة لمسعود . لقد إشتبه كلاب الحراسة فى صاحبنا اليمنى إذ إكتشفوا حقيقته من أول جملة وجهوها إليه . فانزلونا جميعا وكنا نستقل سيارة تاكسى ، ووضعونا فى حاوية حديدية بها سريران حديديان إستلقيت على أحدهما وجلس إلى جانبى عبدالهادى العراقى ليراعى حالتى المتدهورة التى لا يملك لها علاجاً ولكنه كان يعطينى الماء ويضع على رأسى كمادات مبللة .
إتصل رجال الكمين بقيادة الأمن فى كابول . نائب رئيس الأمن سألهم عن جنسية المعتقلين العرب، وطلب منهم إن كان بينهم مصريا أو جزائريا أن يرسلوه له على الفور وأن يطلقوا سراح الباقين . أخبروه أن لديهم عربيا واحدا من الجنسية اليمنية . فأمرهم بتركه . فتحركنا بسيارة التاكسى صوب "تشارآسياب" أول مواقع حكمتيار ـ ونحن لا نصدق أننا أفلتنا .
وأحسسنا أن جبلا هائلا إنزاح من على صدورنا، حتى أننا لم نشعر بأى إنزعاج عندما شيعتنا طائرات مسعود بقصف عنيف للمناطق التى نحن فيها أو نتحرك إليها كان ذلك مثل زقزقة العصافير بجانب بؤس الوجوه التى كانت تبحث عن العرب فى عشرات من نقاط التفتيش التى أوقفتنا منذ غادرنا قندز حتى وصلنا "تشارآسياب " .

<u>**عودة إلى الوطـ ـ ـ ـ ـ ـن**</u>

إنتابنى إحساس العائد إلى الوطن عندما رجعت إلى خوست، وشعور العائد إلى البيت عندما دخلت معسكر"جهادوال"، وطاقمه الحبيب يستقبلنا بالأحضان والإبتسامات
فى آخر حديث لى من طالقان مع أبوالعطاء التونسى أمير المعسكر، سألنى عن إحتياجاتنا هناك، فرددت عله "جهز لنا عندك برميل شاى بالحليب " .
عند وصولى سألنى عن معنى تلك الشيفرة . فقلت له: معناها أن مهمتنا إنتهت وأننا عائدون إليكم كى نجلس معا ونشرب الشاى بالحليب .
ضحك أبوالعطاء من كل قلبه . وأمر بتجهيز الشاى بالحليب وجلسنا فى مكان خاص أعده قرب مطبخ المعسكر، وكان عبارة عن مصطبة خشبية مرتفعة قليلا ومظللة

بالقماش وخلفها مكان تعيش فيه بقرتان أحدهما سوداء وآخرى بيضاء. قال لى أبو العطاء أنه إشتراهما من أجل الحصول على حليب لأفراد المعسكر . فقلت له أن السوداء للشاى والبيضاء للحليب فلن تحتاج إلى شراء شيئ من السوق .
ضحك أبوالعطاء، وكان يسعده جلساتنا الجماعية المرحة لإحتساء الشاى بالحليب والحديث عن كل شيئ، فكان يحرص عليها بانتظام .

****

فى ليلة إستشهاده زارنى فى بيتى فى كابول قبل ذهابه إلى الجبهة. تناولنا طعام العشاء وشربنا الشاى ثم صلينا خلفه فى جماعة، وكان صوته شجيا فى تلاوة القرآن، وكان معنا أبوحفص وآخرون. كان حديثنا وقتها عن تجهيز برنامج جديد للعمل فى مناطق ماوراء نهر جيحون فى طاجيكستان وأوزبكستان. ورغم طبيعته المتحفظه كان متحمساً، وكان مصرا على الإستقاله من إمارة معسكر الفاروق بعد أن مل جلوسه الطويل هناك لسنوات، لهذا جاء إلى الجبهة بحثا عن الإنعتاق .
فى ضحى اليوم التالى كان إنعتاقه النهائى من هذه الدنيا. ذهبت لرؤيته جثمانه فى مستشفى كابول، ومعه أربعة من المتطوعين العرب وجميعهم مغسول بالدماء فقد أصابهم صاروخ بشكل مباشر فإستشهدوا جميعا فى نفس اللحظة . كان صديقى راقدا فى هدؤ كالمتأمل ، ولحيته السوداء الكثة تزيده مهابة وجلالا. أحسست أن قلبى يتفطر وتمنيت البكاء فلم أستطع، كنت متصلبا بطريقة أزعجتنى.
وعند العصر كنت ضمن موكب دفنه فوق أحدى الهضاب خاف مطار كابول، إلى جانب زميل له، عربى آخر إستشهد معه فى نفس الموقع . جلست قرب قبره وأنا أستعيد فى ذاكرتى أسماء من أحبهم وأماكن دفنهم المتباعدة... من ميرانشاه إلى خوست إلى جلال آباد إلى كابول إلى الشيشان إلى البحيرات الإفريقية .. إلى .. سألت نفسى لماذا أنا فى ذيل القائمة دائما ؟؟. وإلى متى سأظل واقفا على حافة القبر وفوق رأسى لافته مكتوب عليها : لم يصبه الدور؟؟ .

" إنتهى "

****

كل صباح تغمر المرآة وجهى
بضباب الأسئلة:
مازلت حيا ؟؟
عجبا !!
أمات إحساسك
أم مات جميع القتلة ؟؟
"**أحمد مطر**"
....

الجزء الثانى

الضربة الأمريكية للمعسكرات العربية:

أحـداث الليـلة الأخـيرة

بدأ معسكر الفاروق فى خوست عام ١٩٩٣ نشاط التدريبى بشكل تميز بالتركيز والنوعية العالية، ثم بالتركز على المناطق الإسلامية التى تحررت من السوفييت ولم تتحرر من القهر الشيوعى الذى رفع راية الديموقراطية.

جاء ذلك التدريب، هذه المرة، بعيدا عن تأثير مراكز التمويل التقليدية التى شهدتها فترة "الجهاد الافغانى". بل بعيد أيضا عن كل التنظيمات الجهادية العربية ، حتى القاعدة ، التى لم يكن ما يحدث فى الفاروق ضمن برنامجها ، ولم تتبناه فى أى وقت ، وإن ساعدت فيه بكرم بما تبقى لديها من فائض تسليحى وتدريبى من عناصر نسيهم التنظيم فى مجاهل جبال خوست .

كان ما يحدث فى الفاروق مزعجاً أكثر مما توقعنا للمشرفين على الحملة الأمنية الأمريكية فى بيشاور . فالمطلوب كان تصفية التواجد العربى وطرد العرب من كل المنطقة ، باكستان وأفغانستان. حتى يبقى المجال مفتوحاً أمامها كى تتقدم إستثماراتهم فى المنطقة (خاصة النفطية منها) بشكل آمن وتتقدم صوب منطقة آسيا الوسطى التى تراها منطقة فارغة ينبغى ملئها ، بعد أن إنحسر عنها الإحتلال السوفيتى . وهذا ما أفصح عنه بصراحة العديد من الجهات الأمريكية النافذة إقتصاديا وسياسيا .

كان متابعة هؤلاء الشباب فى أفغانستان والقضاء عليهم أمرا صعباً فلا أمريكا يمكنها فعل ذلك منفردة ، ولا أصدقاؤها فى كابول إستجمعوا شتات أمرهم بعد ، فلديهم برنامج أهم هو الحرب الأهلية وتهديم بقايا الدولة الأفغانية وتمزيق المجتمع الأفغانى بالصراعات . وكل ذلك يخدم الهدف الأمريكى النهائى بالسيطرة على أفغانستان، وإتخاذ البلاد مركزا لبرنامج أوسع للهيمنة على آسيا الوسطى كلها، وما يعنيه ذلك بالنسبة لتطويق الصين ومنع تمددها إلى ذلك الإتجاه ، وما يعنيه أيضا من مواصلة تفكيك روسيا الإتحادية ، وما يعنيه أيضا من تطويق إيران والتمهيد لتصفية الوضع القائم هناك طبقا لمنظور أمريكى إسرائيلى مشترك للمنطقة التى يسمونها الشرق الأوسط الكبير. كان الفاروق تحت رقابة دائمة من الأمن الباكستانى . وكانت المراقبة تشمل كل المعسكرات التابعة للأفغان أو الباكستانيين أو العرب .

وكانت تلك القواعد متقاربة نسبيا..وهى :

قاعدة جاور: التابعة لحقانى وتستخدم كمخازن للأسلحة والذخائر المتبقية لديه من فترة الجهاد .

معسكر سليمان الفارسى : وهو قريب من جاور من جهة الحدود الباكستانية وكان مقرا لكتيبة تابعة لحقانى تحمل نفس الأسم . ثم أعارة حقانى لمجموعات باكستانية تعمل فى التدريب لصالح كشمير .

قاعدة جهاد وال : تابعة لحكتيار وهى أيضا مخزن للأسلحة والذخائر.
معسكر جهاد وال : التابع لجماعة أسامة بن لادن (تنظيم القاعدة) وتفرعت منه سلسلة معسكرات أصغر هى :
معسكر الفاروق : وقد نال شهرة فاقت المعسكر الأصلى لأنه درب أعدادا أكبر من المتدربين العرب وقت " الجهاد الأفغانى" ثم متدربين من آسيا الوسطى والشيشان ـ فى الفترة التى تلت "الجهاد الأفغانى" .
معسكر الصديق : وهو على مسافة قريبة من جهاد وال وكان للدورات الخاصة لمجموعات لا ترغب فى الظهور للآخرين ، والمعسكر صغير المساحة جدا. وكان فارغا معظم الوقت .

لم يكن إستخدام القوة المباشرة ضد العرب اللاجئين إلى الأرض الأفغانية أمرا ممكنا فى ذلك الوقت . ولكن التخلص منهم أخذ خطوطاً أخرى .
أهمها كان إغلاق الطريق عليهم إلى طاجيكستان. وهى الجبهة الجهادية المشتعلة وقتها . وقد رأينا كيف تم ذلك معنا "جماعة معسكر الفاروق". ثم أن القضية نفسها تمت تصفيتها ضمن (صفقة) إقليمية ودولية . وعقد حزب النهضة مصالحة إجبارية مع النظام فى دوشنبه وعاد المهاجرون إلى بلادهم بعد أن إقتنعوا أن الروس أهون من إخوانهم في العرق واللغة على الجانب الأفغانى من نهر جيحون .
رحل العرب أيضا من نهر جيحون . وإنكمشوا مرة آخرى فى معسكراتهم الجبلية ، فى إنتظار الفرج ، وبعضهم غادر إلى الشيشان .
جاء الفرج وإنبعثت الحياة فى معسكرات خوست بعودة أسامة بن لادن من السودان . وبدأ شباب من السعودية واليمن يحضرون مرة اخرى من أجل التدريب ومن أجل الإطلاع على الجديد لدى بن لادن الذى جعل منه الاعلام الأمريكى رمزا للعدو الجديد فى الحقبة ما بعد الحرب الباردة ، فترة القطب الأوحد الذى لا يجد عدوا ولا حتى منافساً. فجعل من الأشباح العربية المتبقية من الحرب الأفغانية عدوا رهيبا، على الورق طبعا ـ يهدد الحضارة الغربية والنظام الدولى .

أراد أسامة بن لادن إعادة الحياة مرة أخرى إلى معسكرات خوست على إعتبار أنها البرنامج الوحيد المتاح له . كما أنها مصدر جذب وإلهام للأجيال الجديدة التى سمعت عن "الجهاد الأفغانى " ولم تشارك فيه.
أجيال ترى أن أوضاع المسلمين والعرب ، وجزيرتهم العربية بشكل خاص ، فى ظل الإحتلال الأمريكى ،والتوحش الإسرائيلى فى فلسطين ، والإستسلام العربى وطغيان الأنظمة فى بلادهم . كل ذلك يستلزم حلا. ولم يكن متاحا من حلول غير البندقية ومعسكرات خوست وأسامة بن لادن ونهجه المجاهد .
خطاب بن لادن منذ عودته من السودان أكد أنه على نهجه القديم ذاته . وأنه سيواجه كل أعداء أمته بقوة السلاح .

ثم جاءت أولى ضرباته ضد الأمريكان بتفجير سفارتيهم فى"نيروبى" كينيا و"دارالسلام" تنزانيا ـ فى ضربة متزامنة مذهلة فى جرأتها وأسلوبها .
وكانت النتيجة كما توقع بن لادن ، أن الآلاف من الشباب يريدون الإنضمام إلى ركب بن لادن فى أفغانستان . وتبنى أسلوبه فى العمل .
إستطاع الوصول منهم عدة عشرات فقط، وأرسل المئات رسائل أنهم فى الطريق .
حتى ذلك الوقت كانت المعسكرات مهملة تعقد بها دورات قليلة وصغيرة العدد ، لشباب غير متأكدين من شيئ، تتجاذبهم عوامل شتى وفتاوى متناقضة,
وقد كان علماء نافذين فى السعودية يعارضون توجه الشباب مرة آخرى إلى أفغانستان ويفتحون لهم منافذ شتى مثل البوسنة والشيشان ، وحتى بورما "!!" التى أرسل العلماء إليها وفدا لاستطلاع إمكانية الجهاد هناك .
لا يحتاج الأمر إلى كثير ذكاء إلى ان تلك الإتجاهات الثلاثة متوافقة تماما مع إحتياجات البنتاجون والسياسة الخارجية الأمريكية .
ولكن حتى توجه بن لادن إلى أفغانستان حقق مطلبا أمريكيا ، بفرض أجندة خارجية على حركة طالبان التى سيطرت على أفغانستان .
وهى حركة داخلية بحته فى نظرتها وبرنامجها ـ وكادت أن تنجح فى لم شمل البلاد الممزقة والشروع من جديد فى بناء الدولة التى لم يتبق من وجود لأى من أجهزتها أو بنيتها التحتية.
بوصول بن لادن إليها تحول ـ قسراً ـ البرنامج المحلى لحركة طالبان إلى برنامج دولى. وبما أن بن لادن وصل إلى أفغانستان بترتيب أمريكى سودانى مشترك، فإن أفغانستان أصبحت مصنفة أمريكيا مركزا للإرهاب الدولى،الذى يستدعى تدخلا دوليا لقمعه وإعادة أفغانستان إلى حظيرة "النظام الدولى الجديد" أى الحظيرة الأمريكية تحديدا. وهو ما تم بالفعل بقوة السلاح الأمريكى ـ وبالتحديد سلاح الطيران ـ والقوة الأرضية لتحالف الشمال الأفغانى المدعوم دوليا وإقليميا من دول الجوار الأفغانى.
بعد ضربات القاعدة ضد سفارتى أمريكا فى نيروبى ودار السلام، بدأت أول دورة تدريبية للشباب المتحمسين الذين وصلوا لتلقى التدريب فى أفغانستان تحت تأثير الحماس الشعبى الذى أعقب العملية الإستشهادية المزدوجة .
قرر بن لادن أن ينتقل من مقره فى قندهار كى يستقر فى معسكرات خوست ، مع عائلته كلها . ليشرف بنفسه على المعسكرات ، ويتصل مباشرة مع الشباب الجدد ويتابع عملية تربيتهم العسكرية والفكرية .
قصفت المعسكرات ليل الخميس (٢٠/٨/ ١٩٩٨) . وكان من المفروض أن يكون أسامة بن لادن هناك، بالطبع مصحوبا بكبار جماعته . بل كان من المفروض أن يعقد قران أحد الشباب فى تلك الليلة فى قاعدة جاور ثم يستكمل الحفل فى جهاد وال . كان ذلك البرنامج معروفا منذ شهر . ولكنه تغير بدون الإعلان عن ذلك .
الغرف الخمس التى كانت مجهزة لإستقبال بن لادن وأسرته كانت قد جهزت بالفعل .

وكلها فى معسكر الصديق ـ القريب من جهادوال .
فى ليلة قصف المعسكرات كان بن لادن متواجدا فى كابول منذ عدة أيام يتهيأ بالفعل للإنتقال إلى خوست .
فى عصر الخميس كنت فى زيارته حيث يقيم مع أبوحفص المصرى وكبار المساعدين الآخرين فى مضافة كبيرة كانت قصرا صغيرا لأحد أقارب الملك السابق . وكانت تحوى عشرات من الشباب العرب والباكستانين المشاركين فى القتال إلى جانب حركة طالبان ضد تحالف الشمال بقيادة أحمد شاه مسعود فى شمال كابول.
تحدثنا كالعادة عن الأوضاع الأفغانية على ضوء ضربات أفريقيا التى جاءت مفاجئة للجميع حتى بن لادن نفسه . وكنت متخوفا ليس من ردة الفعل الأمريكية ولكن من ردة فعل طالبان على عملية لم يأذنوا بها ولن يوافقوا عليها ـ وكان ذلك يزعجنى بشكل خاص لمعرفتى بخطورة التوترات بين حركة طالبان وبن لادن الذى يضرب بمصالحهم عرض الحائط .
تكلمنا وقتها عن تأخر ردة الفعل الأمريكية ، كنت مندهشا لذلك ورأيت فيه ضعفاً. فقد كنت أتصور أن تأتى ردة الفعل بدون أى تأخير.
كنا نتحدث عن ردات الفعل المحتملة. وكان هناك عدة أهداف لضربات محتملة ، جاء على رأسها وبإجماع الآراء معسكرات خوست .
ولكن الإختلاف جاء فى كيفية الوقاية من الضربة . الآراء كلها كانت فى جهة ورأى بن لادن كان فى جهة آخرى . وهى الجهة التى إنتصرت كالعادة .
الجميع يرون ضرورة إخلاء المعسكرات تماما والبحث عن أماكن جديدة لها . أسامة بن لادن كان يرى فى ذلك ضعفاً، وأنه يجب أن يواجه العدو فى المعسكرات نفسها لا أن يتركها له خالية .
وكان بالفعل قد بدأ حتى قبل ضربات أفريقيا ، فى تنفيذ خطة دفاعية من إبتكاراته ، تشبه كثيرا تلك التى نفذها فى "تورابورا" لمواجهة الجيش الأمريكى "**انظر كتاب صليب فى سماء قندهار"**. تعتمد على نظرية الدفاع الثابت عن الموقع . بحفر خنادق وشق طرق كثيرة فوق الجبال تصل إلى مواقع دفاعية بعضها حقيقى وأكثرها وهمى مزود بأسلحة هيكلية. وهى نفس الخطة الدفاعية التى نفذها ايضا بعد ذلك لحماية معسكرة الجديد فى منطقة "جرمواك" القريبة من قندهار وكان يحمل نفس الإسم التاريخى "معسكر الفاروق".
كان سيناريو الهجوم الأمريكى على المعسكرات حسب الآراء المطروحة هى إما ضربة من الجو فقط بالطيران والصواريخ ، مع إحتمال أضعف بأن يعقب ذلك عملية إنزال جوى للقوات الخاصة ـ ولم أكن من أنصار ذلك الإحتمال بإعتبار أن أمريكا لا تجرؤ على تعريض جنودها لمثل تلك المحنة، فجندى المشاة الأمريكى عبارة عن صفر تسانده أرقى تكنولوجيا فى المنظومة الشمسية، من أجل أن تجعله بالكاد شبه رجل ، أو مجرد فزاعة تخيف عصافير البشر.

وكان بن لادن متشوقا لذلك الإحتمال كثيراً، أى مواجهة أرضية مع الأمريكان، ولكنهم خيبوا آماله فى كل مرة ، فى خوست ، ثم فى قندهار ، ثم فى جبال تورابورا.

أبو أيمن فى الدفاع الجوى

لم يكن هناك دفاع جوى تقريبا عن تلك المعسكرات "العربية" فيما عدا مدفع شلكا"٢٣ مليمتر" فوق أحد الجبال القريبة من "جهادوال" .ولم يكن هناك ذكر لأى نوع من الصواريخ . وكان لدى القاعدة عدد محدود جدا من صواريخ سام القديمة من بقايا الحرب الأفغانية ـ وأربعة صواريخ ستنجر أشتروها من جلال آباد ، ودخلت القاعدة الحرب ضد الولايات المتحدة ولديها صاروخ ستنجر واحد!!.

كان يدير الشلكا مجموعة من شباب اليمن يقودهم الشاب"أبوأيمن " وهو محبوب وذو شعبية ومجاهد قديم حضر معركة جلال آباد عام١٩٨٩ مع بن لادن والقاعدة. وكاد أن يقع فى الأسر عندما تابعته ببطء دبابات الميليشيا الأوزبكية "جلم جم" حتى أخرجته من دائرة الحصار وهو يجرى أمامهم ويلتفت إليهم لاطماً خديه مولولاً.

فى ظنى أن منظره الغريب نسبيا كان سبباً فى خوفهم منه . إذ أن طوله حوالى المتر تقريبا ولحيته كثة جدا . وكان وحيدا تماما فى منطقة خالية من البشر فوق الطريق الأسفلتى، ولأكثر من عشرة كيلومترات وهو يجرى فوقه بطريقة غريبة فى درجة حرارة تصل إلى الخمسين مئوية. وربما ظن وحوش "جلم جم" الجهلاء إنه من الجان وليس من الإنس .

فلم يحاولوا لا الإمساك به ولا حتى تجاوزه فقط ساروا خلفه بهدؤ على مسافة آمنة . وقد أخرهم ذلك كثيرا فى الوصول إلى نقطة إغلاق الطوق على العرب المنسحبين أى أسفل جبل قبا الشهير **(انظر كتاب الحماقة الكبرى)** . وربما كان "أبوأيمن" سببا فى إفلات العرب من طوق الحصار بدون أن ينتبه أحد إلى دورة هذا ولا حتى أبو أيمن نفسه.

وهو بالمناسبة زجال يكتب الشعر العامى الضاحك وكان أبوعبد ا "أسامة بن لادن" يمنعه من قراءة ذلك الشعر أمامه، حفاظا على وقار المجلس.

فقد أبوأيمن في معارك شمال أفغانستان عام ٢٠٠١.

شارك أبوأيمن فى القتال ضد قوات مسعود فى شمال كابول . وكان معظم الشباب يتجاذبونه للبقاء معهم . فقد كان محبوبا لدرجة كبيرة . وفى كل أسبوع تقريبا يرى رؤى بإستشهاد أحد الشباب، وكانت تتحقق . رؤية واحدة تكررت معه كثيرا ولكنها لم تتحقق أبدا ، وهى رؤيا إستشهاده وكان الشباب يتندون كثيرا على ذلك، وهو يتحسر بألم على خيبة أمله تلك . وربما تحققت أمنيته فى شمال أفغانستان.

* بعد إنتهاء الضربة الأمريكية على المعسكرات سألت أبوأيمن عن دوره فى تلك المعركة بصفته المدافع الجوى الوحيد عن المعسكرات . قال ببساطة أنه كان نائما وكان هناك شباب فى الحراسة، وعندما إستيقظ على صوت الإنفجارات وجد الجميع نائمون ولم يكن هناك من يحرس المكان . فأيقظهم من النوم وبعد إنتهاء القصف

نزلوا من الجبل للإطمئنان عن إخوانهم فى المعسكر الذى إشتعلت به الحرائق وتحطمت غرفه. هذا هو كل دور الدفاع الجوى لأهم معسكرات الإرهاب الدولى فى حدث كان الأهم فى العالم وقتها، ودخل من بعدها التاريخ من أوسع أبوبه "المفبركة" .

شباب اليمن كانوا الأغلبية فى جهادوال الذى لم يكن يحوى غيرهم تقريبا وكان عددهم قليلا على أية حال . أمير معسكر الفاروق ونائبة كانا أيضا من شباب اليمن، وبالطبع أبوالعطاء التونسى كان أميرا عاما لكل المعسكرات.

أبرز الوجوه القديمة فى معسكر جهادوال وقت الهجوم كان "حمدى المصرى" وهو من كوادر جماعة الجهاد المصرية ، وخبير متفجرات . كان معتكفا فى المعسكر بسبب الحمله الأمريكية /الباكستانية على العرب فى ابريل ١٩٩٣.

وقد أصيب حمدى إصابات بالغة فى جلال آباد نتيجة إنفجار عبوة منفجرة بالخطأ ، كان يعمل فى تجهيزها.

{{ لم يكن حمدى هو المسئول عن الخطأ بل كان "كبريت الهاب" المصرى، والمتفجرات أيضا كانت صناعته مصرية. والمشهور هناك بأن الهاب أحسن كبريت حتى أنه فى أيام دراستنا كان الطلبة يهتفون بإسمه فى مظاهرات العهد الناصرى ضمن شعارات رنانة تعكس طموحات وأهدافا سامية لجيل الثورة الناهض، من أمثال: يسقط المطر شتاء ـ "سبيروسباتس" عدو الشعب ـ كبريت الهاب أحسن كبريت .. الخ . فتلك شعارات مضمونة العواقب لا تأخذ بصاحبها خلف الشمس حيث يرقد كل صاحب رأى فى مصر}}.

كان حمدى يشعل عود ثقار وإلى جانبه العبوة التى يجهزها فطارت شظية من كبريت الهاب ورقدت فى قاب العبوة التى إنفجرت فأحدثت إصابات وعاهات مستديمة بالشاب المجاهد .

وكانت الحكومة المصرية تمد المجاهدين وقتها بالكثير من الأسلحة والذخائر والمتفجرات وحتى الصواريخ بأنواعها، وكان الشباب المصرى يمارس الإرهاب فى أفغانستان مستخدما تلك المواد الخطرة لذا إعتقلتهم حكومتهم إعتقالا لاينهيه إلا ملك الموت.

كان حمدى شاباً مرحاً مفعم بالحيوية والشجاعة وروح الدعابة . بعد إصابته تلك ظل لفترة يعانى من الإكتئاب , خصصوا له فى جهادوال غرفة طينية لا يشاركه فيها أحد ملأها حمدى بكتب الكمياء والتاريخ والسياسة وأدوات الكيمياء التى يستخدمها فى تجاربة المستمرة لتطوير تخصصه فى المتفجرات .

كان حمدى هو الوحيد الذى إستشهد فى معسكر جهادول ، وقد خصصت الولايات المتحدة صاروخ كروز لغرفته الطينية المعزولة قرب مدخل المعسكر .فلم يتبقى شيئ من حمدى أو من ممتلكاته كلها ، كما إختفت الغرفة وكأنها تبخرت .

*****

مفارقـ ـ ـ ـات

نتيجة لتطورات إدارية داخل المعسكرات وجد "حنيف" نفسه قائدا عاماً لمعسكرات خوست التابعة للقاعدة، ولكن بشكل مؤقت حتى يعود أبوالعطاء التونسى ـ أمير المعسكرات ـ من رحلة سريعة إلى كابول لمقابلة أسامة بن لادن.

يروى حنيف فى الورقات التالية تفاصيل حادث ضرب المعسكرات بصواريخ كروز الأمريكية . المفارقة هنا أن حنيف هو أحد كوادر الجماعة الإسلامية المصرية وكان متواجدا بشكل عرضى فى المعسكر ، ربما لزيارته أو مساعدة زميلا له من نفس الجماعة يدرس للمتدربين دورة فى التكتيك ، وهو خالد المصرى .

لم ينتبه حنيف إلى العلاقة بين التشويش على الإتصال اللاسلكى "أوتجميدة" وبين الهجوم الوشيك من جانب العدو.

وتم تجميد الاتصالات منذ وقت العصر وحتى العاشرة مساءً حين جاءت الضربة، بدون أن يتشكك حنيف أو غيره فى الأمر. رغم توقعهم لضربة معادية ضد المعسكرات .

ولسبب مجهول لدينا فى أن تجميد الإتصالات شمل أجهزة اللاسلكى الصغيرة المستخدمة فى الإتصال الداخلى بين المعسكرات ـ ولم يشمل أجهزة الاتصال الكبيرة التى تربط المعسكرات بالخارج . وأجهزة الإتصالات الصغيرة تلك مرتبطة بجهاز تقوية مركزى "ريبتر" موضوع فوق أحد الجبال. ويبدو أن عملية "تجميد" الإتصال تتم بالتشويش على هذا الجهاز تحديدا. فكل ما شاهدناه من عمليات "تجميد"، سواء فى الحرب السوفيتية أو الأمريكية، كانت تتم على أجهزة مرتبطة مع "ريبتر".

لقد ظن حنيف أن عطلا أصاب الأجهزة نفسها، لذا لم يهتم بالأمر. ربما لو أن أبو العطاء كان موجودا لأكتشف الخطر مبكرا، لأنه تعرض عدة مرات لمواقف مشابهة أثناء مشاركته فى عملية "المطار٩٠".

* المفارقة الأهم هو وجود دورات تدريبية يحضرها لحوالى ٧٠ شابا، فى وقت أجمعت فيه الآراء على أن المعسكرات معرضة لضربة إنتقامية.

وقد أجيزت دورة التكتيك بعد أن أعلنت حالة الإستنفار إثر عمليات أفريقيا. وكان ذلك مجازفة كبيرة، وإستهانة غير مقبولة بالعواقب. لم يكن إحد من مساعدى بن لادن يقبل بتلك المجازفة لولا الإصرار غير المبرر لزعيم القاعدة على آرائه.

* كان ملفتا للنظر أن أمير معسكر الفاروق ونائبه، قد أصرا على النزول معا إلى خوست لشراء مستلزمات المعسكر. ولم يكن لذلك ضرورة بالمرة. كان يكفى أن يذهب أحدهما فقط. وفى العادة يذهب أحد أفراد المعسكر لهذا الغرض وليس الأمير أو نائبه.

أثار حنيف أزمة حول تلك المسألة بحضور أبو العطاء الذى كان يتأهب للمغادرة إلى كابول. لكن أبو العطاء طلب منه عدم التشدد معهما، ربما حتى لايغضبا ويتركا المعسكر.وكان تملق المتدربين سياسة شائعة لحاجة الجماعات إلى زيادة عدد أفرادها.

تأخر الشخصان المدينة بشكل غير مبرر. وإتصل حنيف لاسلكيا عدة مرات لإستعجال عودتهما، لكنهما لم يعودا إلا بعد إنتهاء عملية القصف وبدء عملية إخلاء الجثث.
كان التصرف عاديا فى ظل حالة التسيب التقليدى فى المعسكرات العربية فى أفغانستان، ولكنه يستدعى التساؤل إن لم يكن المساءلة.
* بمناسبة التساؤل والمساءلة، فقد ذكر حنيف أنه بعد الحادث لم يسأله أحد من قيادات القاعدة عما حدث فى تلك الليلة، رغم أنه كان المسئول عن المعسكرات وإدارتها. ربما لأن مسئولية تشغيل المعسكرات فى ظل الخطر القائم، إعتمادا على خطة دفاعية واضحة الضعف، هى مسئولية يتحملها فقط زعيم القاعدة الذى تفرد برأيه فى هذا المجال معارضا رأى "أبو حفص" وزير دفاعه، ورأى "ابو العطاء" مدير المعسكرات.
* قبل الهجوم الأمريكى على المعسكرات كانت هناك توقعات بضربة أمريكية عليها، حتى قبل عمليات نيروبى ودار السلام، وعليه طرحت وجهتى نظر:
الأولى ـ تدعو إلى نقل المعسكرات بعيدا من الحدود، لكونها تحت الرقابة الباكستانية الشديدة، وهناك رقابة من خلال المعسكرات الباكستانية القريبة.
وجهة النظر الثانية ـ تنادى بإلغاء المعسكرات الثابتة وإعتماد سياسة "التدريب العائم" فى أماكن متغيرة ومتفرقة، أى ما أسموه: سياسة "درب وإهرب".
عارض بن لادن وجهتى النظر وقرر تقوية المعسكرات القائمة، بل وإعادتها إلى سابق عهدها الذهبى وقت الحرب السوفيتية، بل وأن ينتقل بنفسه وأسرته للإقامة هناك للإشراف بنفسه على إعداد المتدربين.
لكن الضربة الجوية سبقت وصوله إلى هناك بفترة قصيرة.
* بعد الضربة طالبت حركة طالبان "بن لادن" بنقل معسكراته إلى مواقع أخرى بعيدة عن حدود باكستان. تم بحث عدة بدائل وإستقر الأمر على منطقة "جرمواك" الصحراوية إلى الغرب من قندهار بحوالى ٣٠ كيلومتر.
وعلى هذا كانت الضربة الأمريكية للمعسكرات سببا فى إنهاء الدور التاريخى لمعسكرات خوست العربية.
(نلاحظ هنا أن الضربة الأمريكية لم تطال معسكرا عربيا على أطراف منطقة خوست كان مشغولا بتدريب الجماعة الإسلامية الجزائرية التى إقتربت وقتها كثيرا من منطق التكفير،وكانت غاية النشاط فى أعمال الإغتيال والتفجير، وتعمل الجماعة فى منطقة نفوذ الحليف الفرنسى!! ـ بالطبع لم يسأل أحدا السؤال المحرم: لماذا ؟؟).
******

أحداث الليلة الأخيرة

ننتقل إلى ما رواه حنيف من أحداث الليلة الأخيرة لتلك المعسكرات، فى حديث سجلته معه حول الحادث.

يقول حنيف:

بعد ضربة كينيا وتنزانيا بحوالى أسبوعين، كنا فى المعسكر، والإخوة قالوا لنا(يقصد القيادة) إنتبهوا ممكن يحدث عليكم إنزال أو ضربة طيران. فكنا فى حالة طوارئ فى المعسكرات الثلاث.

أبو العطاء كان أميرا للمعسكرات كلها، وكنت أساعده، ولم يكن أبو الفرج الليبى "المساعد الأساسى" متواجدا وقتها.

كان البلدوزر يعمل فى تمهيد طرق على الجبال ومواضع دفاعية "بوسطات" كثيرة.

كانت خطة أبو عبدا التى أبلغها لأبو العطاء، هى أن يحتل الشباب هذه "البوسطات" فى حال حدوث إنزال أو ضربة جوية. وكانوا يجهزون لشراء أسلحة وتضبيط أوضاعهم.

سمعنا أن "أبوعبدا " موجود فى كابول، وأنه سيحضر إلى المعسكر.

فقرر أبو العطاء الذهاب إليه كى يمنعه من المجئ " نظرا لخطورة الوضع وعدم كفاية الإستعداد فى المعسكرات" .

كنا قد أجرينا تجارب ليلية على الخطة الدفاعية مستخدمين الشلكا وعدد من مدافع زيكوياك والدوشكا . وكنا فى حالة إستنفار كامل قبل الضربة بثلاثة أيام.

قال لى أبو العطاء : سأذهب إلى كابول للقاء أبوعبدا لاقنعه بعدم المجئ، وأنت إنتبه إلى الإخوة وتابع الإجراءات الأمنية حتى أعود .

كان فى المعسكر ثلاث أسر عربية : أسرة أبوالعطاء ، وأسرة حمزة الجوفى وأسرة أبوعبدا الحسينى . قبل سفره إلى كابول طلبت منه أن يصطحب معه الأسر الثلاث ويتركهم فى خوست ، لأنه إذا حدث شيئ "ضربة أو هجوم" فستكون مشكلة على الأسر فننشغل بهم ، وقد يحدث لهم مكروه .

وافق أبوالعطاء على قولى وأخذ الأسر معه عندما تحرك من المعسكر فى العاشرة من صباح الخميس "**٢٠ أغسطس١٩٩٨** " ، فى طريقه إلى كابول .

بعد سفره أصبحت المسئول عن كل المعسكرات وكان الأفراد المتواجدين بها كالتالى:

- فى "جهادوال" ستة أفراد فقط : حمدى المصرى ، طه المغربى ، ثلاث آخرين .
- فى الفاروق : ٣٥ شخص فى دورة تكتيك ، ومثلهم فى دورة تأسيسية فكون المجموع حوالى ٧٠ شخص .
- معسكر الصديق : وبه حوالى ١٢ فردا ، عليهم أمير منهم (وهم من جماعة تركستان الشرقية "الصين الشعبية") .

قبل مغادرة أبوالعطاء حدثت مشكلة بين (حنيف) وبين أمير معسكر الفاروق ونائبة "وهما من اليمن " . فقد قررا النزول سويا إلى خوست لشراء الطلبات. يقول حنيف:

طلبت أن يبقى أحدهما وينزل الآخر فمن غير المعقول أن يبقى المعسكر بلا أمير "خاصة فى هذه الظروف " . أصر الإثنان على موقفهما ، وأنا أيضا أصررت على موقفى . وكان أبو العطاء مازال موجودا ، فقال لى :

ـ إن الإخوة يمنيين فلا تدقق معهم ودعهم يذهبون (!!) . " ربما أبوالعطاء هنا يشير إلى عناد الاخوة اليمنيين وتصلب مواقفهم " وأصر الإثنان أيضا على أخذ سيارة معسكر الفاروق معهما .(بقى معسكر الفاروق الذى شهد الكمية الأكبر من الضحايا بدون سيارة ما عدا سيارة فى حالة سيئة تمشى بصعوبة . وبقيت سيارة سليمة هى سيارة معسكر جهاد وال ، وقد إحترقت فى القصف . فكانت عملية إخلاء الجرحى متعثرة جدا كما سنرى) .

قبل مغادرتهما إلى خوست طلبت من الإخوة اليمنيين، أمير الفاروق ونائبة ، عدم التأخير ."وقد نفذا العكس تماما " .

بعد العصر إتصلت لاسلكيا وسألت عنهم فى خوست فعلمت أنهما مازالا هناك ولم يتحركا إلينا . فطلبت إبلاغهما بضرورة الوصول إلينا قبل الغروب أى قبل حلول الظلام .

بعد ذلك الإتصال، وقد أجريته من معسكر جهادوال "بالمخابرة الكبيرة"، حاولت الإتصال بمعسكر جهادوال ثم معسكر الصديق " بالمخابرة الصغيرة " لكن الإتصال لم يتحقق ، وظننت أنهم مشغولون .

ثم حاولت مرة آخرى بلا فائدة .(هنا بدأت عملية تجميد الإتصال اللاسلكى بين المعسكرات تمهيدا للهجوم عليها ـ لم ينتبه حنيف لذلك) .

بعد صلاة المغرب إتصلت مرة آخرى بمعسكرى الصديق والفاروق فلم يرد أحد .

ـ فإتصلت بمدينة خوست أسأل عن الإخوة اليمنيين فأخبرونى أنهم سيتحركون الآن. فطلبت من خوست أن يوقفوا تحرك الإخوة اليمنيين إلينا إذا تأخروا ساعة أخرى أكثر من ذلك حتى لا يتحركون فى الليل .

فإذا أذن لصلاة العشاء وهم مازالوا فى خوست فليبقوا هناك حتى الصباح .

ـ بعد نصف ساعة إتصل بى مركز خوست وأخبرونى أن الإخوة اليمنيين تحركوا إلينا .

ـ حاولت الإتصال بالفاروق لكن أحدا لم يرد .فقلت سأصلى العشاء وأذهب إليهم.

*** كل ذلك الوقت من إنقطاع الإتصال اللاسلكى مع المعسكرات المجاورة ولم يتسرب الشك إلى ذهن "حنيف" !! . كان معه سيارة جيدة ويمكنه الوصول بها إلى معسكر الفاروق أو الصديق فى حدود خمس دقائق . منذ العصر أى الخامسة تقريبا لم يفعل ذلك إلا بعد التاسعة ليلاً .

لا شك أن ذلك أيضا خطأ جسيم ، عائد إلى قصور شديد فى الخبرة أو فى الحس الأمنى أو كلاهما.

ومع ذلك سنرى أنه لم ينتبه إلى ذلك حتى عندما ذهب إلى معسكر الفاروق وبقى هناك حوالى ساعة كاملة ، وعلم بأن المخابرة هناك لم تكن معطلة وأنهم حاولوا من جانبهم الإتصال به دون جدوى .

مع كل ذلك لم ينتبه حنيف إلا عندما بدأت صواريخ كروز تتساقط عليهم فى العاشرة وخمس دقائق ليلا .

لقد أخطأ العدو بإعطاء الخصم كل ذلك الوقت كى ينتبه إلى أن إتصالاته اللاسلكية مجمدة ، ويفهم أن هناك هجوما وشيكا . ولا ندرى السبب فى أنه عطل اللاسلكى قبل العمليات بخمس ساعات كاملة ولاشك أن ذلك خطأ جسيم فى إدارة العدو للعملية(فهل هو خطأ متعمد؟؟)

وأخطأ "حنيف" نيابة عن العرب فى فهم مغزى الإنقطاع اللاسلكى .

وكان لديه وقت أكثر من كافى كى يجعل خسائره البشرية صفرا وذلك أهم من كل المبانى الطينية التى لاتساوى ثمن طلاء صاروخ كروز واحد .

ملاحظة : فى قندهار "فى ١٩ اكتوبر ٢٠٠١" هاجمت القوات الأمريكية مقر الملا عمر فى قندهار وحاولت إنزال جنودها هناك . وجمدت الإتصالات اللاسلكية للعرب والأفغان منذ لحظة بداية القصف الجوى . "**راجع كتاب صليب فى سماء قندهار**"

يواصل حنيف روايته فيقول:

كانت قد مرت ساعتين على مغادرة إخواننا مدينة خوست، ولكنهم لم يصلوا. شعرت بالقلق عليهم لأن المسافة تستغرق ساعة ونصف. قلت لحمدى:

سأذهب إلى الفاروق لأرى الإخوة هناك، لأنى أتصل بهم منذ العصر ولم يجب أحد، فإذا لم تصل إليكم السيارة القادمة من خوست فسوف آخذ معى مجموعة للبحث عنهم لأنهم تأخروا.

{{ ملاحظة: إستغرقت رحلة العودة من خوست أكثر من ثلاث ساعات ، كما سنرى، أى أكثر من ضعف الوقت الطبيعى...لماذا ؟؟.خاصة وأن من قام بالرحلة هم أمراء المعسكر، المستهدف الأساسى، والذى سقط فيه العدد الأكبر من القتلى}}

ذهبت إلى الفاروق وسألت الإخوة هناك: لماذا لاتردون على المخابرة ؟؟ .

فأجابوا قائلين بل أنتم لاتردون على إتصالاتنا منذ العصر"!!".

تعجبت لذلك .. وكانت الساعة٩,٢٠

سألونى عن القادمين من خوست فقلت: إنهم تحركوا منذ ساعتين ولم يصلوا إلى الآن. وجدت "خالد" مدرب التكتيك مريضا بالملاريا وراقدا فى الغرفة. وكان من المفروض أن يأخذ جماعته المكونة من ٣٥ شخصا فى مسيرة خارج المعسكر، فألغى المسيرة وطالبهم بالمبيت داخل المعسكر وإستئناف التدريب فى الغد.

{{ ملاحظة: هنا تلعب المصادفة دورها. فلو أن تلك المسيرة تمت طبقا للبرنامج المقرر لوقعت الضربة ونصف أفراد المعسكر متواجدون خارجه منتشرون فى الجبال. وهؤلاء هم سكان الخيام الذين وقعت بهم كل الإصابات القاتلة }} .

ذهبت إلى عيادة المعسكر فوجدت أخين مريضين ، واحد يمنى والآخر باكستانى منذ الصباح لم يعتنى بهم أحد فى علاج أو طعام.
أحضرت لهم طعام وأعطيتهم دواء حتى الساعة ٩،٥٠ ، ثم تركتهم وذهبت إلى غرفة الإدارة وكنا سبعة اشخاص بما فيهم المعلم عبدا .
عند الساعة ١٠،٥ ونحن جالسون فى غرفة الإدارة سمعنا صوت طيران.
مباشرة جاء فى ذهننا أنه الطيران الأمريكى جاء ليقصفنا. فجرينا إلى الباب متجهين إلى غرفة الإدارة الأخرى التى بالأسفل ، وما أن وصلنا إلى هناك حتى وجدنا المعسكر كله وقد أضاء بالنيران وأصوات إنفجارات الصواريخ تدوى .
مباشرة "معلم عبدا " ، وخالد "المدرب" أختبأ كلاهما تحت راجمة صواريخ قريبة وأنا إنبطحت تحت براميل للماء ، ولم أكمل الإختباء " كان المكان صغيرا " .
باقى الإخوة دخلوا غرفتين صغيرتين إلى جانب غرفة الإدارة. إستمرت الإنفجارات خمس دقائق، شعرنا أنها ساعة كاملة.
كان معى مخابرة حاولت الإتصال بها مع مجموعة "أبو أيمن" على مدفع الشلكا فوق جبل "جهادوال"، لكن الإتصال لم يتحقق. نظرت إلى المخابرة فإذا هى مغطاة بالطين، فظننت أن الماء دخلها فتعطلت. بعد ذلك إكتشفت أن المخبرة كانت مغلقة.
نظرت إلى السماء فرأيت خطوطا حمراء ظننت أنها طلقات رسام تطلقها الشلكا على الطائرات، ولكنها كانت حزم من صواريخ كروز في طريقها إلينا.
توقف القصف والإنفجارات. الحرائق أضاءت أرجاء المعسكر. سمعت الإخوة يكبرون. نزلت للبحث عن الإخوة الذين كانوا إلى جانبى فلم أجد أحدا.
نزلت إلى الوادى ومشيت فيه ، فوصلت إلى موضع الدورة التأسيسية فوجدتهم جميعا منتشرون . وجدت أخا كويتيا واقفا هناك فسألنى : أين كنتم ؟.
وكان قد رأى غرفة الإدارة تهدمت كلها فظن أننا قتلنا تحت الردم ثم سألنى مرة آخرى : هل أنت بخير ؟؟.
فأجبته : أننى بخير ومعافى .
وكنت مصابا بجروح فى رأسى ينزف منها الدم . فغسلى لى رأسى بالماء . ثم سألنى عن باقى الاخوة .
قلت له : جميعهم خرجوا من غرفة الإدارة وربما كان خالد مازال بداخلها . ولم أكن قد رأيته بعد .
ثم أعطيت الشاب مفتاح السيارة وطلبت منه أن يحضرها ـ وكانت متوقفة قرب مبنى الإدارة . فقال إنها أصيبت والنيران مشتعلة بها .
فطلبت منه إحضار السيارة الآخرى . وكانت هى أملنا فى نقل الجرحى فلم يعد لدينا غيرها هنا . وكانت فى حالة سيئة وصندوق التروس بها يعمل فقط على السرعة البطيئة . أحضر الشاب السيارة وأخذناها إلى مقر جماعة التكتيك "وكان يدعى الكلية" أكثر الإصابات كانت هناك وكنا نسمع أصوات الصراخ .

كان لديهم ثلاث خيام بها حوالى ٣٥ متدربا ، وضربت هذه الخيام بصاروخين .
وكان إلى جانب الخيام غرفة طينية كبيرة مستطيلة لم تصبها الصواريخ.
وكنت قد أصررت على الإخوة (أبوالعطاء والآخرين) ألا يستخدموا الخيام ماداموا يتوقعون قصفا أو إنزالا ، فالغرف أهون بكثير . ذهبت بالسيارة إلى هناك فوجدت قتلى وجرحى.
وجدت أخ يمنى إسمه سراقة كان مصابا بشظية فى جنبه إخترقته عميقا ، ولكنه كان مازال يتنفس .
سألنى الإخوة : نحملة؟؟ ـ قلت: إتركوه وأحضروا الآخرين . فقد كنت أراه منتهيا .
حملوا فى السيارة ثلاث أو أربع جرحى ، وبينما نحن على وشك المسير سمعنا صوت تفجيرات أخرى والشلكا ترمى .
صاح الإخوة : جاء الطيران والقصف قادم . نزلنا نجرى إلى الخنادق والجرحى الذين كنا نحملهم كانوا يركضون مثلنا ويقفزون إلى الخنادق (!!).
توقفت التفجيرات وكانت بعيدة عن معسكراتنا ويظهر أنها كانت فى معسكر"سلمان الفارسى" القريب من "جهادوال" .
أعدنا الجرحى مرة أخرى إلى السيارة . وكان هناك جريح بعيد عنا أردنا الذهاب إليه فتعطلت السيارة وإحتجنا إلى دفعها .
قلت للسائق : إجمع الجرحى فى السيارة واتبعنى إلى "جهادوال" .
كنت أريد إحضار الشاحنة من هناك لحمل الجرحى ، ولم أكن أعلم عددهم النهائى بعد . قال لى أحد الشباب : لا تمشى وحدك ، سآتى معك .
ورافقنى بالفعل وسرنا على الأقدام . مررنا على معسكر الباكستانين (البدر) . فوجدت كل الغرف هناك مهدمة ، والمسجد الضخم الذى شيدوه حديثا بالطابوق والأسمنت تهدم تماما ولم يعد له وجود. (**ملاحظة**: فى ضرباتهم الجوية التالية أعطى الأمريكيون عناية خاصة لتدمير المساجد. وفى ضربتهم تلك للمعسكرات نجت بعض الغرف والمرافق، ولكن لم ينجو مسجد واحد، بل لم يتبقى أى أثر لأى مسجد).
صاح بى أحد الشباب الباكستانين قائلا : تعال!! الأمير هنا .
رددت عليه قائلا : ليس عندى وقت لمقابلة الأمير ، أنا ذاهب إلى المعسكر جهادوال كى أرى المصيبة هناك.
علمت بعد ذلك أنه كان يريد إخبارى بأن الأمير قتل فى ذلك المكان ، وكان يريد منى رؤيته . كان عددهم كبيرا فى معسكر "بدر" وقتل منهم حوالى عشرة أفراد منهم الأمير ونائبة وطاقم الإدارة كله . لأن المسجد كان إلى جانب الإدارة ، فدمرت الصواريخ المسجد ومبانى الإدارة . وكان المعسكر تابعا لحركة الانصار .
ذهبت قريبا من معسكر "جهادوال" ولم أجد فيه أى حركة ويغمره ظلام دامس فيما عدا شعلة نار تضئ مثل شمعة صغيرة .

أدركتنا سيارة الجرحى وهى تمشى ببطء شديد ، وكلما تعطلت دفعها الشباب فكانت مأساة .
قلت للسائق: سأتولى أنا القيادة وإذهب أنت إلى "جهادوال" وأحضر الجرحى والشاحنة من هناك .
ركبت إلى السيارة "البيك أب" التى تحطمت أضواؤها ونحن نسير فى ظلام دامس وشابان يسيران أمامنا لإعطاء الإرشادات .
فى الطريق قابلنا جماعة التركستانيين الذين كانوا فى معسكر الصديق . سألناهم عن أحوالهم ، فقالوا أن القصف طالهم فى المعسكر , سألنا عن الجرحى ، فقالوا: لم يجرح أحد ، وقد إنسحبنا جميعا من المعسكر .
قلت لهم : إبقوا قريبا من معسكركم ولا تدخلوا إليه حتى الصباح ، وأحرسوا المكان لأن به أسلحة وذخائر كثيرة .
وقلت للإخوة : خذوا أنتم السيارة وسننتظر نحن الشاحنة والجرحى من جهادوال .
فتحركوا بالسيارة (صوب خوست)،وبقيت جالساً فى إنتظار الشاحنة والجرحى .
أخيرا وصلت سيارتنا القادمة من خوست وهى تقل أميرمعسكر الفاروق ونائبة .
سألتهم عن سبب التأخير. فقالا :
ـ ونحن فى الطريق رأينا الطيران ، وصوته يمرق من فوقنا ، وسمعنا صوت القصف فى المعسكرات ، فظننا أنكم قتلتم جميعا . فجلسنا فى أماكننا لمدة ساعة لا نتحرك وأخيرا جئنا لنرى الوضع .
كنا قد إلتقينا بهم فى منتصف الطريق فسألناهم عن حالة الطريق الذى جاءوا منه فقالوا : عند المنحدر النازل من الطريق هناك تجمهر لأناس أشكالهم مريبة ومعهم تراكتور.
سألت مامعنى أشكالهم مريبة ؟؟ .
قالوا : لسنا مطمئنين لهم .
قلت : إذن سنرسل لإحضار إخوة معهم كلاشنات و(آر بى جى) حتى يرافقوا سيارة الجرحى إلى خوست .
قالوا : ونحن قادمون إليكم شاهدنا أناساً يهبطون إلى الطريق قادمين من الجبل (خلف الفاروق) .
قلت لهم : لماذا لم توقفوهم ؟؟ .
فقالوا : لقد خفنا منهم ، فيس معنا سوى سلاحين فقط وكان عدد الرجال خمسة تقريبا وكانوا يلبسون ملابس أفغانية فأخافنا ذلك .
قلت : لابد من إحضار أفراد وأسلحة لحراسة الجرحى فى الطريق إلى خوست .
طلبت منهما "الأمير ونائبه" أن يذهبا إلى معسكر "جهاد وال" لإحضار الشاحنة والجرحى من هناك حتى ندرك السيارة الأولى ونتحرك جميعا إلى مستشفى "خوست".
بقيت فى الإنتظار ومعى أربعة أفراد، إثنان منهما من اليمن.

مرت ساعة ولم يرجع إلينا الإخوة من "جهادوال". ولكن وصلت إلينا خمسة أو ستة سيارات للطلبة قادمة من خوست، وكانت الساعة الواحدة صباحا (أى بعد مرور٣ ساعات على الضربة) .
وقفت سيارات الطلبة إلى جانبنا ونزل منها حمزة الجوفى،(وهو مصرى كان يعيش مع القبائل فى منطقة الجوف باليمن)، سألنى حالتى وعن الوضع فى المعسكرات.
قلت له : أنا بخير ومصاب بجرح صغير فى الرأس ، والجرحى من معسكر الفاروق فى طريقهم الآن إلى خوست.
قال الجوفى: لقد رأيناهم فى الطريق، وهو آمن ولا خطورة عليه. (الجوفى وطالبان لم يشاهدوا أحدا على الطريق ، ولا أى سيارات أو تراكتور).
قلت له: نحن جالسون فى إنتظار الشاحنة والجرحى من "جهادوال".
قال: إبقوا جالسين، سنذهب نحن إلى هناك لنرى الحالة.
ظهر لنا فيما بعد أن الشاحنة عند وصولها كان بها قتلى فقط، فلم يكن هناك جرحى.
الساعة ١,٣٠ صباحا مر حمزة الجوفى على معسكر البكستانيين "البدر"، وأحضر الجرحى من هناك. عندما عاد إلينا وجدنى ممددا على الأرض، فحملونى إلى خوست. فى الطريق سألته عن الشاحنة. فقال إنها ستأتى.
سألته مرة أخرى عن جرحانا، فقال:
ـ لا جرحى عند العرب ولكن هناك جرحى باكستانيين.
قرب الفجر وصلنا إلى خوست، وفى المستشفى ربطوا لى رأسى وجاء نائب الوالى للإطمئنان علينا.
بعد الفجر وصل أبو العطاء من كابول وسألنى عما حدث، فرويت له القصة كلها.
وكان أبو العطاء قد وصل كابول ليلا ولم يبق بها أكثر من نصف ساعة مع "أبو عبد ا " وباقى الإخوة، ثم عاد إلى خوست فورا.
الأخ سراقة اليمنى، الذى جرح فى الفاروق، توفى أثناء نقله إلى خوست، فطلبت منهم إعادته إلى المعسكر (لادفنه هناك فى مقبرة العرب).
رجعت مع أبو العطاء إلى المعسكر فى ضؤ النهار، فرأينا الوضع كالتالى:
ـ معسكر "جهاد وال" معظمه مدمر بإصابات مباشرة.
ـ معسكر "الفاروق" أصابته٥ صواريخ دمرت المسجد والإدارة والخيام.
ـ معسكر "البدر" للباكستانيين كله مدمر.
ـ معسكر " الصديق" أصابته ٦ صواريخ. وكان به ٥ غرف بنيت حديثا لأبو عبدا وأسرته. كل غرفة أصابها صاروخ مباشر، والصاروخ السادس أصاب مدخل المعسكر.
أخذنا نجمع جثث القتلى حتى ندفنهم.
فى "جهادوال" وجدنا غرفة "حمدى المصرى" وقد أصيبت بصاروخ مباشر، فلم يبقى للغرفة أثر وأخذنا نجمع قطع صغيرة من لحمه المتناثر على مسافات بعيدة.

حمدى هو الوحيد الذى قتل فى معسكر جهادوال والباقون أصيبوا إصابات خفيفة ولم يحتاجوا حتى للذهاب إلى المستشفى.
فى الفاروق كان من بين القتلى شاب مصرى قادم من كندا، وهو رياضى محترف ويدعى "صديق". كان أكبر المتدربين سنا، وفى جلسة سمر مع الشباب قال لهم:
ـ أنا إن قتلت فلن تتعرفوا إلا على رجلى هذه.(ويظهر أن بها إصابة قديمة مميزة)
عند وصولنا إلى المعسكر قالوا لنا إن صديق مفقود !!.
أخذنا نبحث عنه، فلم نجد سوى قدمه التى كان يشير إليها، ولم نجد شئ آخر من جسده.
أخذنا ندفن القتلى حتى صلاة العصر.
قبل الظهر وصل إلينا فى معسكر جهادوال، الملا محمد حسن وزير الخارجية، وبرفقته "والى" خوست، وكل الطاقم الإدارى بها.
صادفوا على بوابة المعسكر ثلاثة من الصحفيين، واحد باكستانى وإثنان من الأفغان،وكان معهم كاميرا فيديو. وكان هؤلاء أول من وصل إلى المعسكر من "العالم الخارجى". كنا نرفض إدخالهم إلى المعسكر فبقوا واقفين على البوابة حتى حضر موكب الوزير والحراس.
سألنا الوزير عن هؤلاء الواقفين على البوابة. فقلنا له إنهم صحفيين نرفض إدخالهم إلى المعسكر. فتوجه الوزير مع الوفد للإستفسار من الصحفيين:
ـ كيف جئتم إلى هنا ؟؟.
ـ نحن صحفيون.
ـ هل معكم تصريح ؟؟
ـ ليس معنا تصريح.
كانت تلك إشارة البدء، إذ هجم عليهم الوزير والموكب بأجمعه وأوسعوهم ضربا وحطموا الكاميرا التى بحوزتهم. وطلب الوزير إرسالهم إلى سجن الولاية فى خوست، وسحب جوازات السفر التى معهم.
فى غرفة المعسكر قدم لنا الوزير والوفد المرافق له العزاء فى قتلانا من العرب.
كل القتلى فى جميع المعسكرات التى قصفت كانوا ٢٥ قتيلا، منهم ٧ من العرب،وهم:
ـ ٥ من متدربى دورة التكتيك فى معسكر الفاروق.
ـ ١ من متدربى معسكر الصديق "من التركستان".
ـ ١ من معسكر "جهادوال" وهو حمدى المصرى.
أما باقى القتلى وعددهم ١٨ فهم باكستانيون كانوا معسكرات البدر وسلمان الفارسى.
وقد طال القصف قاعدة جاور ولكن بلا أية إصابات.
نلاحظ هنا أن القتلى من البكستانيين كانوا أكثر من ضعف القتلى العرب. رغم أن عمليات تفجير السفارتين فى أفريقيا لم يشارك بها أى باكستانى لا من قريب أو بعيد.

ويلاحظ أن القصف الأمريكى طال مصنعا للدواء فى الخرطوم بذريعة مهولة وهى أنه يصنع للقاعدة مواد للحرب الكيماوية. وظهر فيما بعد أن الإدعاء ضخم جدا وكاذب تماما كما هى عادة مصانع الأكاذيب والمبالغات الأمريكية.

سبب قصف المصنع أنه كان يزود شعب العراق، الواقع تحت الحصار الأمريكى الأوروبى، بحوالى ربع إحتياجاته من الدواء.

* ليس من مبرر لقصف معسكرات التدريب الباكستانية، البدر وسلمان الفارسى، سوى أن قيادة تلك الجماعات قد شاركت القاعدة فى التوقيع على بيان " الجهاد ضد الأمركيين المحتلين لبلاد الحرمين" . وهو البيان الذى لم يأخذه أحد مأخذ الجد، حتى الذين وقعوا عليه. لذا عندما وقعت تفجيرات أفريقيا لم تهتم تلك الجماعات الباكستانية بإتخاذ أى إجراءات وقائية فى معسكراتها المجاورة لمعسكرات العرب فى خوست.

* أما قصف قاعدة جاور التابعة لجلال الدين حقانى فمبرره الظاهر على الأقل، هو أن جاور كانت مرشحة مكان لعقد قران أحد الشباب العرب بحضور بن لادن وحقانى وعدد كبير من العرب وقيادات القاعدة، وكان الموعد هو نفس ليلة القصف. وتأجل عقد القران ولكن أمريكا لم تخلف الميعاد.

*****

لا أحد يعتبر

يقول حنيف:

ومع كل هذا الذى حدث لم يجلس معى أحد كى يسالنى عما كان، بصفتى كنت المسؤل عن المعسكرات وقت الهجوم. إن أحدا لم يفتح الموضوع بعد ذلك معى أبدا، وكأننى لم أكن موجودا أصلا.

تعليق:

أقول أن عدم إستخلاص العبر من التجارب وعدم التمعن فيها، كان سلبية كبيرة واضحة فى عقلية "عرب أفغانستان". فلم أشاهد فى أى حالة، على الرغم من كثرة المعارك والشهداء، أن هناك بحثا جادا حول أى معركة ونتائجها. فقط جمعنا الجثث ودفناها... وإنتهى الأمر!!.

لم يستفيدوا من تجربة "حرب المعسكرات" لذا كرروا الأخطاء نفسها فى خطواتهم التالية: فى معسكر "جرمواك" غرب قندهار ، وفى تورابورا .

نفس النمط الفاشل يتكرر كل مرة ونفس السلوب. أى إعداد دفاع ثابت لمواجهة ضربة جوية وبرية من قوة عظمى!!. العدو ينهى المعركة كل مرة بالضربة الجوية وحدها، وتجهيزاتنا الأرضية نفقدها كلها بسرعة وسهولة وبلا فعالية.

فى تورابورا مسح العدو الموقع بعد أسابيع من القصف الجوى العنيف. ثم أرسل قواته الأفغانية "الصديقة!!" كى تجمع جثث العرب وتأسر الجرحى. وفى الأخير أرسل قواته الخاصة من أجل إلتقاط الصور التذكارية والإستعراضية بهدف الدعاية لأفشل جندى فى التاريخ والمزود بأفتك الأسلحة فى التاريخ.

أسلوب "تضليل العدو" بالمواقع الوهمية والطرق المتشعبة فوق الجبال والأسلحة الهيكلية، كلها أساليب ثبت عقمها وعدم جدواها، أولا فى "جهادوال". ومع ذلك عممت فى التجارب التالية كى تعيد نفس الفشل، فلم يخسر العدو طلقة واحدة ضد أى سلاح هيكلى أو طريق مضلل. لقد ضرب فقط كل ماهو مهم وفعال من أسلحة وطرق.

لايعنى ذلك أن العدو لايمكن خداعة أو أنه لايرتكب الأخطاء، بل أن خداعة ممكن جدا ـ على شرط أن نعرف جيدا إمكاناته وأسلوبه فى العمل طبقا لقاعدة: (إعرف نفسك وإعرف عدوك). وسبق التذكير بأننا لانعرف أنفسنا ولا نعرف عدونا. لذلك فمعاركنا معة مليئة بالبطولات الخارقة والتضحيات الجسيمة ولكننا فى كل مرة نخسر المعارك ونكسب النكسات.

وعن الأخطاء ، فليس أكثر منا فى إرتكاب الأخطاء سوى عدونا. ولكن قوته الضخمة وعدم مجابهته بمقاومة جدية تعرف نفسها وتعرف عدوها، جعلته يمتص الصدمات ويخرج منتصرا، لسبب أساسسى هو ضعف مقاومة عدوة ، أو فلنقل "جهل عدوة".

وعن أخطاء العدو فى عملية المعسكرات، فقد كانت جسيمة لدرجة تجعل المراقب يتشكك فى جدية هدفه من الضربة. ببساطة كان يمكن أن تسفر عن لاشئ سوى تهديم عدة غرف طينية وعدة غرف من الطابوق.

ولكن قادة العرب إرتكبوا كالعادة أخطاء جسيمة تستحق العقاب.(وكذلك قيادات الباكستانيين).

<u>أشعر أحيانا أن العدو أراد تحذير العرب قبل ضربهم بالصواريخ وترك لهم فرصا حتى يتجنبوا الخسائر.. لكنهم لم يفهموا !!.</u>

كان أمام العرب فرصة أسبوعين كاملين مابين تفجيرات أفريقيا وبين الضربة الصاروخية، وهى مهلة أكثر من كافية ليس فقط لإخلاء المعسكرات من المتدربين، ولكن لإخفاء أثر كل العرب فى أفغانستان كلها.

الصحفيين الذين حضروا صباحا بعد ضرب المعسكرات، كانوا واقفين على بوابة المعسكر يتساءلون بدهشة: لماذا لم تغادروا المعسكرات بعد تفجيرات أفريقيا؟؟.

كانوا على حق فى ذلك، وحتى رجل الشارع كان يسأل نفس السؤال. ولكن مالعمل إذا كان رجل الشارع يسبق وعيه وعى القيادات الجهادية للإرهاب الدولى؟؟!!.

من الصعب تصور أن العدو توقع أن أحدا من العرب سوف يبقى فى معسكرات خوست بعد ضربة أفريقيا. ولكن العرب فاجأوه !! وضاعفوا أعدادهم هناك، لابد أن ذلك أذهله كما أذهل الجميع.

كان خطأ كبيرا يقترب من السذاجه أن يبدأ العدو تجميد الإتصالات اللاسلكية قبل الضربة الصاروخية بحوالى خمس ساعات.

<u>هل هو خطأ جسيم أم محاولة منه لتحذير عدو مصر على أن لا يفهم ؟؟.</u>

ولم يكن الأمريكى تنقصه الإمكانات للتشويش على أجهزة الإتصال الكبيرة كما فعل مع الأجهزة الصغيرة المحمولة. عن طريق الأجهزة الكبيرة كان يمكن أن تنقل

قيادة المعسكرات التحذير من ضربة وشيكة إلى باقى مراكز العرب خاصة فى كابول وقندهار، فلماذا لم يفعل؟؟.

هل هو خطأ جسيم آخر أم أنه أراد من قيادة معسكرات خوست تحذير العرب الآخرين ولكنهم لم يفعلوا وبقوا فى أماكنهم فى قندهار فأضطر هو إلى تعطيل صواريخة المتوجهة إليهم هناك ؟؟ ... مجرد إحتمال!!.

الذى يعطى شئ من المعقولية لهذا الإحتمال هو أن إدارة الرئيس كلينتون تجاهلت تماما الضربة المهينة التى وجهتها القاعدة للأسطول الأمريكى فى مياه عدن بضربها المدمرة(يو إس إس كول) . السبب المفترض هو أن أمريكا كانت تستدرج تتابع وتنتظر عملا كبيرا تجهز له القاعدة. ذلك العمل "الإرهابى" سيعطى غطاء ومبررا لبرنامج هجومى دولى تريده أمريكا وتجهز له أيضا.

عمل القاعدة "الإرهابى" كان عاصفة الطائرات التى جاءت بعد طول إنتظار أمريكى فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كان إشارة البدء لأكبر برنامج أمريكى للهجوم على الإسلام كدين والمسلمين كأمة والعرب كفريسة فى إنتظار من يلتهمها. بل وطال الهجوم الحريات العامة فى أمريكا والغرب والعالم كله، لأن مسيرة العالم فى المستقبل القريب لم تعد تحتمل كل ذلك القدر من التسيب الديموقراطى. فالزمن القادم للبشرية، والذى تصنعة المسيحية الصهيونية فى أمريكا،هو مستقبل النبوءات التلمودية اليهودية، أى الحكومة المركزية العالمية لملك بنى إسرائيل، الذى يحكم بالحديد والنار وأجهزة الشرطة السرية والرقابة الصارمة لجميع أفراد المجتمع فى شتى تفاصيل حياتهم العامة والخاصة.

{{ فلنتأمل ما يحدث فى العالم كله والدول الإسلامية خاصة. بل حتى أمريكا وأوروبا بشكل غير مسبوق فى دنيا المهزلة الديموقراطية. كل ذلك التطبيق الحرفى للطغيان التلمودى على الحريات فى العالم تحت ذريعة "مكافحة الإرهاب الإسلامى، الذى هو أشد تخلفا، سياسيا وتقنيا، حتى من الإرهاب فى "بوركينا فاسو"!! }}

* قصف العدو مصنع الأدوية فى الخرطوم، حتى يسجل فى حملته نتائج تدميرية ملموسة يرضى بها النزعات السلمية والحضارية لدى شعبه.

فمناظر الغرف الطينية المهدمة فى المعسكرات العربية والباكستانية فى خوست لن تكون مقنعة أو مشبعة للتعطش الدامى لشعب متحضر.

(فى تقديرى أن الوفد الصحفى الذى وصل صباح الهجوم إلى معسكر "جهادوال" كان مكلفا/أمريكيا/ بالحصول على صور الدمار المنتصر الذى حققته آلة الدمار الأعظم فى التاريخ ضد بضعة أعشاش طينية "للإرهاب الدولى").

* يلاحظ حنيف أن العدو قصف الغرف الخمسة والتى بنيت حديثا لإستقبال بن لادن وعائلته، كل غرفة أصابها صاروخ مباشر. وكان العدو يعلم بالتأكيد أنها خالية. ولكنه لم يقصف مجمع سكنى صغير كانت تسكنه ثلاث عائلات غادرت المعسكر. وكان ذلك أيضا معلوما لدى العدو فقد كانت المعسكرات تحت رقابة مشددة من الفضاء ومن الجبال الملاصقة لها.

فلماذا قصف العدو تلك البيوت وترك تلك ؟؟. هل هى رسالة للرجل "بن لان" تقول له بأننا نراقبك جيدا ونعلم بالتفصيل ماذا يدور داخل معسكراتك نفسها؟؟.

* الصواريخ كلها جاءت من جهة الغرب. وزير الخارجية محمد حسن قال للعرب فى المعسكر أنها جاءت من كراتشى.

{{ علمنا فيما بعد أن السلطات البكستانية إتصلت مع قيادة طالبان فى قندهار تخبرهم أن الصوريخ الأمريكية قد إنطلقت بالفعل من السفن الأمريكية القريبة من كراتشى، وهى تعبر الأجواء الباكستانية **الآن** فى طريقها إلى أفغانستان، وتطالبهم بالحذر!!. وإعتبرت باكستان ذلك التحذير نوعا من النوايا الحسنة تجاه نظام طالبان !! }}.

* الصواريخ التى كانت فى الطريق إلى قندهار سقطت داخل أفغانستان قبل وصولها إلى أهدافها. وقيل أن هناك صواريخ سقطت فى قرى باكستانية قريبة من الحدود مع أفغانستان. أى أنها عجزت عن الوصول إلى أهدافها نتيجة لخطأ فنى.. **وربما لحسابات سياسية** !!. قيل أيضا أن صواريخ أخرى لاقت نفس المصير وكانت فى طريقها إلى جلال آباد (التى إستضافت بن لادن فى عودته من السودان) ولكن ذلك الخبر لم يتأكد.

خارج المعسكرات لم نعلم على وجه الدقة ماذا حدث للصواريخ. ولم نسمع قط عن أى تقرير متكامل حول الحادث، لامن الجانب الأمريكى أو العربى أو الباكستانى.

كان الغموض هو سيد الموقف على الجانب "الإرهابى" العربى.

وكان كذلك على الجانب الأمريكى، المستهدف الأول من ذلك "الإرهاب" المتخاف والمستفيد الأول منه.

- إنتهى -